وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم الثقافة الشعبية

شعبة : الأنثروبولوجيا

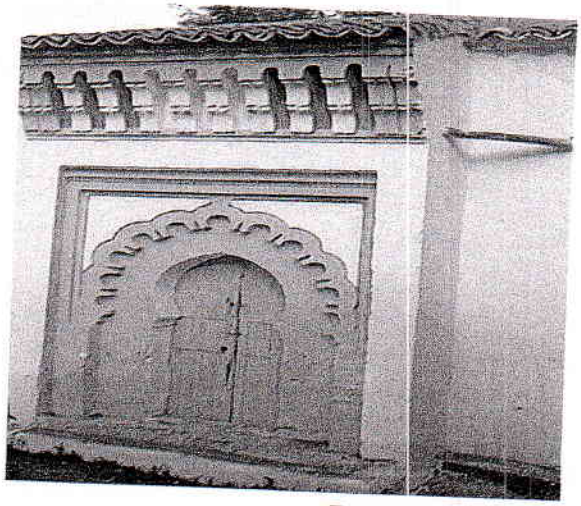

المرحاض

الأبعاد ووظائفها الثقافية

رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأنثروبولوجيا

إعداد الطالب:

نصرالدين محمد قازي ثاني

إشراف الدكتور

التيجيني بن عيسى

السنة الجامعية

2001 – 2002م

سجل تحت رقم 372/13
بتاريخ 03 فيفري 2013
الرقم

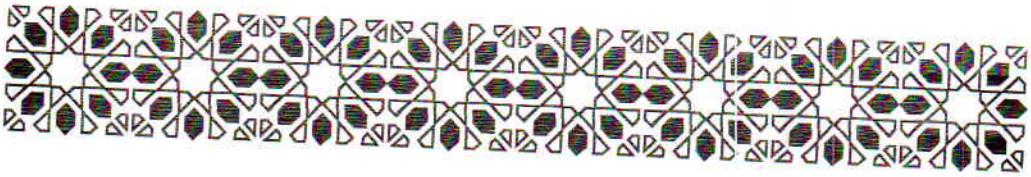

بسم الله الرحمن الرحيم

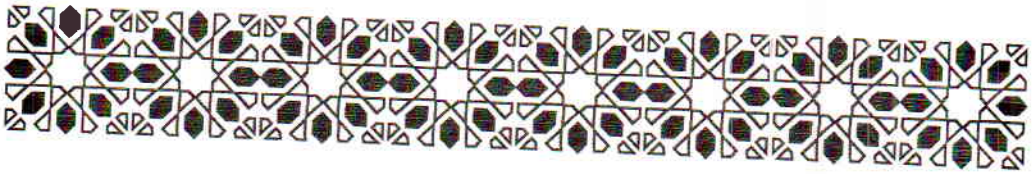

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان * كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية * مكتبة الكلية

دعاء

يا رب... لا تدعني أصاب بالغرور إذا نجحت... ولا أصاب باليأس إذا فشلت...

بل ذكرني دائما بأنّ الفشل هو التجارب التي تسبق النجاح...

يا رب... علمني أنّ التسامح هو أكبر مراتب القوة... و إنّ حبّ الانتقام هو أوّل مظاهر الضعف...

يا رب... إذا جردتني من المال أترك لي الأمل... و إذا جردتني من النجاح أترك لي قوة العناد حتى أتغلب على الفشل...

و إذا جردتني من نعمة الصحة أترك لي نعمة الإيمان..

يا رب... إذا أسأت إلى الناس أعطيني شجاعة الاعتذار... و إذا أساء لي الناس أعطيني شجاعة العفو...

يا رب... إذا نسيتك لا تنسني... غفرانك ربي

إهداء

أهدي هذا العمل إلى روح الفقيد أبي الذي لم تمنحه الحياة فرصـــة الفرحـــة بنجاح إبنه...

إلى مَن علّمتني سر الحياة حلوها و مرّها، والتي بفضلها فهمت معنى الصبر والمعاناة و تعلّمت طرق و مناهج التفكير العميق، إلى أمّي الحنون التي كرّست جلّ حياتها من أجل رعاية أبنائها رعاية مثالية يرتضيها إيمانها بالله تعالى...

إلى زوجتي و أبنائي الذين أحبّهم كثيرا...

إلى إخواني و أخواتي الذين أعزهم...

إلى أصدقائي الذين تتبّعوا عمليات بحثي بكلّ اهتمام...

إلى مؤطرِي الدكتور بن عيسى التيجيني الذي لم يبخل لحظة في استفزازي و تشجيعي على العمل والبحث للتحضير الجاد لهذه الرسالة...

إلى كلّ هؤلاء أهديه...

شكر

أتقدم بشكري الجزيل إلى أستاذي المشرف الدكتور التجيني بن عيسى الذي أمدني بالمعالم التي أنتجت هذا البحث و شرح لي صدره خلال جلسات الحوار التي جمعتنا، فكان نِعم الموجه ونعم المرشد الذي ساعدني كثيرا للقيام بهذا العمل الجدي في إطاره المعرفي، كما أتقدم بخالص تقديري للأستاذ الدكتور شايف عكاشة عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية بجامعة تلمسان، الذي بذل الجهود الجبارة من أجل خدمة العلم والمعرفة بتوجيهاته الصادقة، وإرشاداته الدقيقة، ونصائحه الخالصة.

ولا يفوتني أن أسدي أصدق اعترافي للأستاذ الدكتور رشيد بن مالك، الذي حفزني على القيام بهذا البحث العلمي ، وأثار في نفسي دقة البحث وعمق التفكير، وأقدم شكري أيضا للأستاذ الدكتور سعيدي محمد على رقته في التعامل ومساعدته لي في تقديم هذا العمل ، دون أن أنسى الأساتذة الذين لم يبخلوا علي ولو بنصيحة أو توجيه، وإلى كل الأصدقاء والزملاء الذين وقفوا معي أثناء إخراجي لهذه الرسالة.

المقـــدمة

إنّ موضوع البحث يتناول الزاوية من حيث إنّها مؤسسة دينيـــة وَاجتماعيـــة وثقافية وتربوية، وهي مؤسسة كثيرا ما نلاحظ وجودها في بقاع الوطن الجزائـــري بأكمله. وقد وَسَمْتُ هذا البحث بـــ "الزاوية وَوظائفها الثقافيـــة"، وَأقصـــد بالثقافيـــة المعنى العام لمفهوم الثقافـــة.

وَ تمّ اختيار هذا الموضوع لأسباب كثيرة، أهمّها أنّ الزاوية فرضت نفسها منذ القدم، وَمازالت موجودة وَمستمرة إلى يومنا هذا. وممّا لا شكّ فيه أنّ الزاوية نشأت في كنف الطرق الصوفية، وَهو أمر يتفق حوله كثير من الباحثين وَعدد لا بأس به من شيوخ زوايا الجزائـــر.

وللكثير من الزوايا فضل لا ريب فيه نشر الإسلام في بقاع عديدة من العالم. فإذا كانت قد ساهمت في عمومها في تنمية وَترقية الحسّ الديني عند المواطنين خلال عهد الاستعمار في شمال الجزائر، فإنّ بعضها قد عملَ على نشر تعاليم الإسلام في مناطق إفريقية كثيرة.

وَ كانت منطقة توات على سبيل المثال البوابة التي تسلّلت عبرها هذه التعاليم.

إنّ الزاوية كانت في عمومها مركز إشعاع ديني لأنّ الهدف الذي كانت تصبو إليه هو خدمة الدين ونشره، وقد تخرج منها خيرة العلماء الكبار في علوم متنوعة ومعارف مختلفة. كما أنّها تمكنت من أن تقف أمام الاندثار الحضاري للمجتمع نتيجة

تأمينها للمهزوم وَالمظلوم وفكها للأسير وإكرامها للجائع و إجابتها للسائل.

لقد انطفأت في أحضانها نيران الفتن وسويت النزاعات وأبرمت الأحلاف كما ساهمت في تطوير العمران وازدهار الفنون اللغوية والأدبية والحفاظ على التوازن الروحي والذاكرة التراثية للأمة.

فوجودها إذًا و بطبيعة الحال لم يحدث بشكل تلقائي ولا بمحض الصدفة، وإنما كان له دور فعال في المجتمع بدون شك سواء كان إيجابيا أو سلبيا، كما كانت له مسببات و أهداف.

ثمّ إنَ استمرارية وجود الزاوية وتأقلمها في مختلف مراحل تطور المجتمع بصفة عامة لدليل على حرص فئة مميزة من الناس على إبقاء الزاوية واعتبارها مؤسسة لها مهام يجب أن تقوم بها، ووظائف ينبغي أن تؤديها، وذلك من أجل الوصول إلى أهداف معينة يكون الفرد عنصرا نشيطا فيها، ويكون المجتمع عنصرا مستفيدا منها، سواء كان هذا القبول صريحا أو ضمنيا، أو كان ذلك من قريب أومن بعيد، فهو تعبير واضح على أن الزاوية من حيث إنها مؤسسة تؤدي مختلف الوظائف، فإنها بذلك تحافظ على توازنات اجتماعية، وتدعم النتائج التي تهدف إليها في خلق التكافؤ عندما تلتقي مختلف القوى داخل المجتمع في صراعات متباينة ومتعددة.

فالزاوية بوصفها هيئة دينية وتربوية تكرّس مهامها لتقديم العلم و المعرفة، وتدرس الخصال الجيدة، وتلقن الدروس والذكر، وتعتني بتربية الفرد، فهي بذلك

تساير الحضارة، وتترك بصماتها داخل المجتمع.

وإذا عُرِفت الزاوية في الغالب بأنها مجموعة من أشخاص ينضمّون إلى طريقة عقائدية موحدة، أو إنّها عبارة عن مجموعة من أشخاص منشقين عن الوحدة الدينية، أو إنّها فرقة بشرية صغيرة تنشط من خلال إيديولوجية عقائدية، فإن مختلف هذه التعاريف وغيرها تلتقي في نقطة واحدة، هي أنها تتحدث عن مجموعة من أشخاص من ناحية، وأن هؤلاء الأشخاص لا يجتمعون إلا لغرض ديني أو عقائدي.

وإذا كانت الزاوية خلية اجتماعية هدفها ديني وتربوي واجتماعي. فمن هذا المنطلق، لابد من الإجابة عن الأسئلة العديدة المطروحة والخاصة بالأسباب العامة التي دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع، و التي تتمثل أهمها في :

ما هي المفاهيم المختلفة للزاوية، سواء أكانت هذه المفاهيم لغوية، أم اصطلاحية ؟

وكيف نشأت الزاوية، ولماذا نشأت ؟

وهل هناك نقص في التوعية الروحية بحيث إن المؤسسات الدينية الرسمية الأخرى لم تستطع أن تؤدي دورها كاملا، وبالتالي هل تعتبر الزاوية مؤسسة تكميلية للمؤسسات الدينية الأخرى ؟

ولماذا نصبت الزاوية نفسها داخل المجتمع ؟ ومماذا تتكون ؟ وما هو تأثيرها على الفرد والجماعات ؟ وعلى ماذا تعتمد الزاوية عند تقديم وتأدية وظائفها، هل

على العلم والمعرفة أم على الخرافة والشعوذة ؟

وما هي العلاقات التي تجمع بين أفراد الزاوية ؟ وما هي العلاقات بين هؤلاء الأفراد و الشيخ (المقدم) للزاوية؟

وهل الزاوية واحدة أم متعددة و مختلفة؟ و إن كانت كذلك، فلماذا تعددت و كيف اختلفت الطرق التي تنتهجها كل واحدة منها؟

وما هو تأثير كل هذا على حياة الفرد والمجتمع في الارتباط وحفظ التوازنات فيما بينها؟

تلك هي الأسئلة الوجيهة والعصيبة في الوقت نفسه التي أحاول إيجاد الإجابة عنها معتمدا في ذلك على منهج يتسم بالجانب النظري وعلى تحقيقات ميدانية أحصر من جرائها وجود الزاوية و وظائفها وفعاليتها في المجتمع.

فدراستي للوظائف الثقافية للزاوية ستدفعني بالضرورة إلى التطرق والتحدث عن مفهومها، ونشأتها وتطورها، وكذا إلى البحث في مختلف الوظائف التي تؤديها، وذلك بالتعرض إلى الأبعاد النظرية للزاوية، والقيام بالكشف الميداني لأن أحدد الخطوط العريضة لوظائف الزاوية الثقافية.

ومما لا شك فيه أن الوظائف الثقافية للزاوية عديدة، أذكر منها على وجه الخصوص :

الوظيفة الدينية : وهي أساس نشأة الزاوية، حيث يلتقي الأفراد والجماعات

في فترات يومية أو موسمية ويكررون تلاوة القرآن ، وَدراسة الأحاديث النبوية، والاستماع إلى التفسيرات المختلفة، والمناظرات المتعلقة بأمور الدين، كما يرددون بعض الأوراد والأذكار الخاصة بكل طريقة.

الوظيفة الأخلاقية : و تـــعتبر من الأهداف التي تصبو إليها الزاوية عند تلقينها للأفراد السلوكات الحميدة والتصرفات المنضبطة وفق تقاليد وأعراف مسلم بها مع إيجاد نوع من الاحترام والانسجام، والتعاون والتآخي فيما بينهم.

الوظيفة النفسية والاجتماعية : إن الزاوية تترك آثارا نفسية واجتماعية مهمة في نفس الفرد حيث تجعله متزنا وَمسؤولا على نفسه وأسرته ومجتمعه وذلك بالمحافظة على جميع القواعد والخصال الموجهة لأمورها.

الوظيفة التربوية واللغوية : إن الزاوية تُعدّ مدرسة تقليدية تعتني بتلقين الدروس، وَتعلم الكتابة والقراءة وَحفظ القرآن وَتجويده، وَتغرس بذرة الاعتماد على العلم وَالمعرفة، وَتلقن لأفرادها مصطلحات خاصة بها يعتمدون عليها خلال ذكرهم لمختلف المدائح ، وزهدهم في المناسبات الدينية و الموسمية.

تلك هي إشكالية الموضوع الذي سأعالجه من خلال هذا البحث على الرغم من الصعوبات التي اعترضتني خلال فترات البحث الميداني وخاصة قلة المصادر والمراجع المتخصصة في هذا المجال وترجمة النصوص الفرنسية وقد تغلبت على ذلك بمساعدة الأستاذ المشرف. ومع هذا فإنني بذلت هذا الجهد المتواضع من أجل

معاينة هذا الموضوع الذي ارتسمت معالمه في مقدمة ثمّ ثلاثة فصول وخاتمة، وأنهيت البحث بقائمة للمصادر والمراجع وفهرس للموضوعات.

فأما الفصل الأول فقد خصصته لمفهوم الزاوية حيث بحثت المعنى اللغوي والاصطلاحي لها ثم تطرقت إلى نشأتها وتطورها مبينا مصادرها الأساسية التي أقامت عليها أسسها وأنشأت عليها قواعدها وأحكامها.

أمّا الفصل الثاني فقد تطرقت فيه إلى وظيفة الزاوية الدينية وكان لزاما علي أن أشير هنا إلى الدور الكبير الذي لعبه الاتّجاه الصوفي في نشأة الزاوية كما عالجت فيه الوظيفة الأخلاقية نظرا لما تقدّمه هذه المؤسسة العريقة من دور كبير في احترام وتكريس المحامد الأخلاقية عند الفرد وَالجماعة، ثم بعدها كشفت عن البعد الاجتماعي الذي تقوم به الزاوية في أوساط مختلفة في المجتمع.

أمّا في الفصل الثالث فقد درست الوظيفة التربوية وَاللغوية و بيّنت حِرص الزاوية على تكوين الفرد تكوينا حسنا وَتحويله إلى إنسان أوّلا يحترم نفسه وَغيره وَيشارك في تنمية مجتمعه ويقوم بتربية أسرته تربية حسنة وَتلقينها أسمى الفضائل وَأحسن السير وَأحمدها.

كما تناولت بالدراسة الوظيفة النفسية التي ترعاها الزاوية في الحفاظ على التوازن النفسي والاجتماعي وَمعالجة مختلف الأمراض النفسية وَالاجتماعية التي قد يعاني منها الكثير من الأشخاص ولا يستطيعون إيجاد الحلول الناجعة في المؤسسات

العصرية ممّا يدفعهم بالعودة إلى العلاج التقليدي الموجود في ثقافات الزاوية.

أمّا عن الوظيفة اللغوية، فقد رأيت أنّ الزاوية قد أنشأت قاموسا لغويا خاصا بها حيث إنّها أعطت لبعض الألفاظ معاني محددة وَ دلالات محكمة لا تستخدم إلا داخل هذه المؤسسة كمصطلح الشيخ وَالمقدم وَالزيارة وَالمريد إلى غير ذلك.

وأنهيت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

ولا أدعي أنني وصلت إلى الحقيقة المطلقة، ذلك أنّ الكمال لله سبحانه وتعالى وحده، و لكنني حاولت بقدر ما سمحت لي به المصادر العلمية والأبحاث المعرفية والتحقيقات والحوارات الميدانية من تكوين فكرة دقيقة وعميقة على الزاوية. وقد وصلت إلى هذه النتيجة بفضل أساتذتي الكرام الذين لم يبخلوا علي بنصائحهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم، وبفضل المناقشات التي كانت مع إخواني الطلبة الذين استفدت بتوجيهاتهم أيما استفادة.

وأخيرا فإنّني أحمد الله سبحانه و تعالى على أنه قد أعانني على إخراج هذه الرسالة التي أتمنى أن تكون إضافة حسنة للمكتبة العربية وللأبحاث الأنتروبولوجية بوجه خاص. إنه على كل شيء قدير.

تلمسان يوم 17 جوان 2001

الطالب : قازي ثاني نصر الدين محمد

الفصـــل الأول

مفهوم الزاوية

1- تعريف الزاوية لغويا :

إن تعريف الزاوية لغويا يتمحور في الإجابة عن مختلف التساؤلات حول ما تعنيه الألفاظ المكونة للزاوية من معاني وتعبيرات، ودلالات رمزية. و لتبسيط هذه المهمة بدأنا بمحاورة القواميس اللغوية، مع سرد بعض آراء المختصين في هذا المجال.

ففي تاج العروس للزبيدي، (زواه) يزويه (زيا، وزوي) كعنى (نحاه فانزوى)، تنحى (و) زوى (سره عنه) إذا (طواه و) زوى (الشيء) يزويه زيا (جمعه و قبضه). وفي الحديث زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، ومنه زوى ما بين عينيه أي جمعه، قال الأعشى :

يزيد يغض الطرف عنى كأنما * زوى بين عينيه على المحاجم**

(والزاوية من البيت ركنه) فاعلة من زوى يزوي إذا جمع، لأنها جمعت قطرا منه (ج زوايا) يقولون كم في الزوايا من خبايا (و تزوى) الرجل (وزوى) تزويه (و انزوى) إذا صار فيها[1].

وفي القاموس المحيط للفيروزيادي، زواه زيا وزويا نحاه وسيره عنه طواه، والشيء جمعه وقبضه، والزاوية من البيت الركن، والجمع زوايا، وتزوى وزوى و انزوى صار فيها[2].

---

1 تاج العروس من جواهر القاموس : ممحمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، د.ت، د.ط، ج10، ص125.

2 القاموس المحيط : الفيرزبادي، لبنان، بيروت، دار العلم للجميع، د.ت، د.ط، ج 339.

و يرى محمد فريد وجدى أن زوى الشيء يزويه زويا، نحاه ومنعه، وانزوى، صار في الزاوية و انقبض و الزاوية الركن ، و جمعه زوايا[1].

و في اللسان أن : زوا: مصدر زوا الشيء يزويه زيا و أزيا و زوى فأزوى

زوت الشيء : جمعت و قبضته.

وزوا ما بين العينية فانزوى، أي جمعه فاجتمع وقبضه وانزوى القوم بعضهم إلى بعض إذا تدانوا وتضاموا والزاوية واحدة الزوايا.

وزاوية البيت ركنه، والجمع الزوايا وتزوي صار فيها، وتقول زوى فلان مالا عن وارثه زيا[2].

وفي غريب الحديث لابن الأثير الجزري (زوى) فيه " زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها " أي جمعت : يقال زويته أزويه زيا.

ومنه دعاء السفر "و أزوينا البعيد" أي اجمعه وأطوه.

والحديث الآخر " إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة في النار" أي ينظم وينقبض، و قيل أراد أهل المسجد، وهم الملائكة. ومنه الحديث " أعطاني ربي اثنتين، وزوى عني واحدة "[3].

و منه حديث عمر :" قال النبي (صلعم) : غجبت لما زوى الله عنك من الدنيا ".

وفي حديث آخر " ليزو أن الإيمان بين هذين المسجدين " هكذا روى بالهمز، والصواب ليزوين بالباء أي ليجمعنا و يضمن.

---

1 دار المعارف الإسلامية : محمد فريد وجدي – بيروت – دار الفكر د.ت – د.ط – ج 4 ص 715.

2 ابن منظور – لسان العرب – المجلد14 رقم9026 دار الإنتاج المستقبل للنشر الإلكتروني– بيروت– دار الصادر للطباعة و النشر إزداد . 1 – 1995 – ص 363.

3 النهاية في غريب الحديث و الأثر للإمام محمد مجد الدين ابن السعادات المبارك بن محمد الجزري. ابن الأثير (1656/544) ج 2، دار إحياء الكتب العربية، ط1، (1313 – 1973)، د.ت، د.ط، ص 320.

ومنه حديث أم معبد :" فيا لقصى ما زوى الله عنكم" أي ما نحّا عنكم من الخير والفضل.

وفي حديث عمر : " كنت زويت في نفسي كلاما " أي جمعت.

وفي حديث أن عمر رضي الله عنه " كان له أرض زوتها أرض أخرى " أي قربت منها فضيقتها " . وقيل أحاطت بها[1].

2- المعنى الاصطلاحي للزاوية :

لقد ذكرنا في إحدى المعاني اللغوية للزاوية بأنها في الأصل ركن البناء، و كانت تطلق على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو المصلى، والمعلوم أن الصومعة في المسيحية موضع يطلق فيه الراهب لأمرين مختلفين، إحداهما أن يتعبد فيه، وثانيهما أن يقدم النصح وَالتفكير لمن ارتكب الذنوب.

ومصطلح الزاوية بمعنى المسجد الصغير أو المصلى، لا يزال له معنى عند المشارقة الذين يفرقون بينه وبين مصطلح المسجد الذي يفوقه شأنا، والذي يعرف أيضا بالجامع، بحيث أن الزاوية هي تصور لانزواء أفراد أو جماعات نحو ركن من بيت أو مسجد، أو موضع طاهر تقام فيه العبادات.

وَتشبيه الزاوية بصومعة الراهب المسيحـــي يدفعنا إلى التساؤل عن العلاقة الموجودة بين الزاوية والدين المسيحي ولا نستبعد أنه كان هناك ارتباط بينها وبين

1 المصدر السابق، ص 331.

الدين المسيحي. وقد ثبت هذا فيما جاء في دائرة المعارف الإسلامية بأنها " كانت (أي الزاوية) تطلق بادئ الأمر على صومعة الراهب المسيحي "[1] إلا أنه يمكن استنتاج بعض الملاحظات المتعلقة بالواقع العملي للزاوية وذلك عند مقارنتها ببعض المؤسسات الأخرى كالمسجد والرباط. ففي الزاوية تقام الصلوات الخمس، ولكن لا يمكن إقامة صلاة الجمعة بها (في غالبية الزوايا) نظرا لصغر حجمها.

وهي مكان للتعبد والخلوة، والتصوف، والبحث المعمق في أمور الدين، مما يؤثر كثيرا على الجماهير التي تزورها والتي تؤمن إيمانا عظيما بما تلقيه من تعاليم على اختلاف أشكالها، في حين أن المسجد يبقى مؤسسة دينية لعامة الناس تقام فيه الصلوات. و تلقى فيه الدروس الدينية وهو خاضع للحكم في أغلب الأحيان.

فالزاوية لها طابع خاص في البناء، تعلوه غالبا قبة، و توجد بها في معظم الأحيان أضرحة لأحد أو كثير من المرابطين ، أو ولي أو شريف يعود إليه شرف تأسيسها. و تسير الأمور كلها بفضل حكمته، في حين أن المساجد ولا سيما الحديثة منها تخضع لأنماط معمارية هي مختلفة حقيقة ولكن ليست لها طابع الزاوية الذي ذكرناه.

و توجد بالزاوية أشياء كثيرة، منها غرف للصلاة بها محارب و أضرحة كما ذكرنا، وغرف أخرى يتلى فيها القرآن، ويحفظ بها، وغرف مخصصة لضيوف الزاوية (الزوار) من حجاج ومسافرين وطلبة وغالبا ما يلحق بالزاوية مقبرة تحتضن أولئك الذين أوصوا في حياتهم بان يدفنوا فيها .

---

1 دائرة المعارف الإسلامية، مجلد 10، ص 332.

ويذهب دوماس إلى أن الزاوية على الجملة هي مدرسة دينية، ودار مجانية للضيافة، وهي بذلك تشبه بكثير الدير في العصور الوسطى، وفي العالم الإسلامي الغربي على الأقل، أما بالمشرق فسرعان ما كان لهذا المصطلح معنى محدود، ثم اقتصر استعماله على المساجد الأقل شأنا.

وقد ظهر مصطلح "زاوية" بالمغرب حوالي القرن الثالث عشر، وترادف مع المصطلح الرباط أي "الصومعة التي يعتزل فيها الولي وسط تلامذته ومريديه"[1].

3- الزاوية والرباط :

الرباط هو "زاوية إسلامية محصنة"[2]، وقد وردت تفاسير مختلفة لهذه الكلمة واشتقاقها من الأصل "ربط"، على أن أقرب هذه التفاسير إلى العقل هو ما جاء في القرآن الكريم " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل "[3].

والرباط في الأصل هو المكان الذي يجتمع فيه الفرسان، و يتأهبون للقيام بحملة من الحملات، و يعني كذلك القوافل بالخيل، إلا أنّ هذه الكلمة أطلقت منذ عهد متقدم على جماعة دينية و حربية في زمن اختصّ المسلمون بها دون غيرهم، و يتصل نظام الرباط بالجهاد، أي الدفاع عن البلاد والعمل على توسع رقعتها.

وكانت دولة الروم (البيزنطيون) تعرف هذه الأديرة المحصنة، مثل ذلك دير

---

1 ترجمة القصد البادسي S.A.M.C.S Coline. 26 ص 240 إنتاج 1926

2 دائرة المعارف الإسلامية: محمد تابت الفندي، أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، م 10، ص 19.

3 سورة الأنفال، الآية 62.

ماندراكيون Mandrakion الذي شيد بقرطاجنة قريبا من البحر، وقد ذكره بروكوبيوس Procopius[1]، على أننا نشك في أنه كان للرهبان الذين عاشوا فيه أي شأن حربي. والمستقرون في الرباط أو الذين يلمون به، معظمهم من المجاهدين في سبيل الله، والرباطات أولا وقبل كل شيء قلاع وأماكن يتجمع فيها الجنود عند الثغور الإسلامية المعرضة للخطر، فهي تشبه القلاع عند أهل الغرب في أنها ملاذ يحتمي به سكان البلاد المجاورة له وقت الخطر، وبالرباطات أبراج مراقبة لتحديد أهل البلاد المهددين وجنود الحاميات التي في داخل البلاد وعلى حدودها، ومن ثم فالرباط يحتوي غالبا على سور حصين يحيط به، وتقوم فيه حجر للسكن ومخازن للأسلحة والمؤن و برج للإشارة. والرباطات كانت تقوم على حجم صغير في كثير من الأحيان، فكانت تقتصر وظائفها في هذه الحالات على برج للمراقبة وحصن صغير أشبه بالحصون البيزنطية التي كانت تشيد على الحدود، وهو السبب في كثرة عدد الرباطات التي ذكرها الجغرافيون.

وقد استكثر الناس من إقامة المنشآت، مدفوعين بغيرتهم على الدين، وخاصة بإفريقية في أرباض مدن كطرابلس وصفاقس، ذلك أنه إذا أقام شخص رباطا على نفقته أو عزز حصون رباط قائم، كان ذلك عملا من أعمال البر والتقوى، وكذلك كان من الثواب أن يحض المرء الناس على الانخراط في سلك الرباطات للجهاد في سبيل الإسلام، وتعزيز حامياتها.

---

1 دائرة المعارف الإسلامية: م10، ص 19.

وكان تشييد الرباطات الكبيرة و كثير من الرباطات الصغيرة يقع على كاهل الحكام. ويعتبر رباط المونسيتر أول رباط أنشئ في إفريقية، شيده الوالي العباسي هرثمة ابن أعين عام 179 هـ. وكان القرن الثالث الهجري العصر الذهبي للرباطات.

و قد بنيت الرباطات على طول الشواطئ الشرقية لإفريقية و اعتبرت مناطق محصنة و حامية من هجمات الروم المباشرة. كما كثرت على شواطئ المغرب الأقصى، و قصد بها رد غارات قراصنة الشمال.

و قلنا بأن معظم هذه الرباطات هي بمثابة منشآت حكومية، إلا أن خدمة المحاربين المتطوعين من أهل التقى والورع الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام لم تكن إجبارية.

و كان يلتحق بالرباط بعض الأشخاص ليقضوا فيها بقية أيامهم، إلا أن الغالبية من المتطوعين كانوا يقضون فيها أياما محدودة من السنة، وكانت الحاميات في الرباط تستبدل استبدالا تاما عدة مرات في السنة. ففي الرباط[1] مثلا كان يتم استبدال الحامية في عاشوراء (اليوم العاشر من المحرم) وفي بداية رمضان، وفي عيد الأضحى، و كان يقام بهذه المناسبة سوق هام.

ويتميز الرباط عن الزاوية بطابعه المعماري وما يحتويه من أشياء، فهو بسوره المربع المرتفع الذي تكتنفه الأبراج نصف المستديرة من أركانه و وسطه يذكر بحصون الروم، وينتفخ مدخله الوحيد في منفذ من المنافذ القائمة في منتصف

1 عاصمة المغرب الأقصى.

السور. وثمة سلم يهبط درجه إلى الداخل حيث تقوم الباحة الوسطى تحيط بها أروقة مسقوفة و صوامع غاية في البساطة، والصعود إلى الطابق الأول أيضا من صوامع تقوم على الجوانب الثلاثة للباحة وتمتد على طول الجانب الرابع قاعة بها محراب، وهذه القاعة هي مصلى الرباط، وبحائط القبلة كوى للمدافع، ويقوم على مستوى الشرفات التي تعلوا هذا الطابق الأول باب برج الإشارة وهو برج أسطواني الشكل يرتفع من القاعدة المربعة لإحدى الزوايا الخارجية القائمة في ركن من أركان الرباط، ويشرف على الحصن من ارتفاع يبلغ ستين قدما تقريبا . وهناك قبة صغيرة تقوم أيضا فوق الشرفات تتوج الساحة المربعة التي أمام المحراب في المصلى كما هو الشأن في مساجد هذا العهد.

وكان القوم لا يزالون يشيدون المحارس وأبراج الإشارات في القرن الرابع عشر، ويتخذونها رباطات تنبههم إلى نزول النصارى على الشاطئ، ويذكر ابن مرزوق، مؤرخ أبي الحسن المريني و جغرافيه الخاص في حديثه عنها، أنه كان يرابط في هذه المعاقل جنود من المرتزقة، ولم تكن هذه المحارس والأبراج رباطات بالمعنى الصحيح للكلمة. على أننا إذا صادفنا بالمغرب الأقصى في القرن السادس عشر رباطات من قبيل رباط آسفي الذي كان له شأن حربي في النضال مع البرتغال. إلا أن صفة هذه الرباطات قد تغيرت في الشرق، أي في البلاد التي أصبحت بنجوة من تهديد الكفار، وعزف أهله عزوفا تاما عن التدريب العسكري واستبدلوا به حياة قوامها الزهد والتقشف وترديد الصلوات التي كانت سنة الرباطات

القديمة. وقد كان تطور التصوف وتشعب المتصوفة فرقا و طرائق منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أو القرن الذي سبقه هو العلة التي بررت استمرارية هذه الثكنات باتخاذها زوايا. وهذا التطور الذي أصاب الرباطات. وكان منشؤه في بلاد فارس، أخذ ينتشر منها إلى العالم الإسلامي كافة. ويشير ابن جبير إلى خانقاة أنشأها الصوفية في راس العين إلى الشمال من صحراء الشام، وكانت تعرف أيضا باسم الرباط، إلا أنه يبدو بأن الخانقاه كان مستقرا دائما لأناس يقضون فيها كل حياتهم، في حين أن الرباطات كان ينزلها رجال من الصالحين مدة محدودة كما ذكرنا سالفا، و تصميم الخانقاه شاذ عن تصميم المساجد و المدارس، فلا هو تصميم مسجد و لا هو تصميم مدرسة. كما أن النصوص التاريخية التي فيه لم تحدد ذلك[1].

ومهما يكن من شيء، فإن الرباطات الأربعة القائمة في مدينة حلب، كان أحدها ملحقا بمدرسة من مدارسها وبضريح منشئه، وكان بالضريح قراء وصوفية. وفقد بذلك الرباط صفاته الحربية، وكان هذا هو حال الرباطين القائمين بمكة، واللذين ذكرهما ابن بطوطة. أما في القاهرة، فإن الكتابة الوحيدة التي وجد فيها فـــان برشم VAN Berchem ذكر الرباط، فهي الكتابة المنقوشة في زاوية الملك أشرف إينال (860 هـ – 1455 م)[2].

وقد بلغت موجة التصوف الشرقي إلى بلاد البربر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، و احتفظت هذه البلاد أيضا بكلمة رباط، ولكنها كانت تطلق فيها على الزاوية، حيث كانت تعتبر المكان الذي يجتمع فيه الزهاد حول شيخ من الشيوخ، أو حول

---

1 تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة : حسن عبد الوهاب، ج1، أوراق شرقية لطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، النويري، ط1، القاهرة، 1946م/ ط2، بيروت، 1993، ص 125.

2 المرجع السابق، ص 23.

ضريح واحد منهم.

وقد فرق ابن مرزوق في هذا المقام بين الزاوية والرباط، وإن كانت تفرقته هذه مازالت غامضة، حيث يذكر في حديثه عن الزوايا التي أنشأها شيخه أبو الحسن أن كلمة الخانقاه، وهي كلمة فارسية، لها معنى كلمة رباط. ثم يضيف بأن الرباط في مصطلح الفقراء هو الانقطاع للجهاد وحماية الثغور. أما عند الصوفية، فهي تدل على المكان الذي ينقطع فيه المرء لعبادة الله. والظاهر أن هذا الاستعمال الأخير هو الذي كان شائعا في عهده. ورباط العباد هو مجموع المنشآت الخيرية التي قامت بالقرب من تلمسان حول ضريح الصوفي الشهير سيدي أبي مدين.

وهناك فرق بين كلمة رباط وكلمة مرابط التي تطلق على ولي من الأولياء اكتسب احترام من يلوذون إليه. و الرباطات في الأندلس، آخر بلاد جهاد المسلمين كانت ترفع تخومها المتغيرة على تعاقب الأزمان، وكثيرا ما يستعمل كتاب العرب الأندلسيون وكذلك الفقراء الذين ذكرهم ابن مرزوق كلمة رباط للدلالة على الجهاد بمعناه العام المقتصر على الدفاع. ومثل هذه الرباطات، رباط عبد الله بن ياسين، الأمير الصنهاجي الذي شيد رباطه بين السنغال والنيجر[1]. وقد انتقلت هذه الكلمة إلى اللغة الإسبانية بصيغة رباتوه Rebato .

وكان البربر يعرفون أيضا كلمة رابطة، وهي صومعة يعتزل بها رجل من الصالحين يعيش محاطا بأتباعه و مريديه. و يتصل ازدياد عدد الرباطات في إسبانيا بأماكن قام الالتباس بينها وبين الرباطات بنزعة الورع الصوفية الكبرى التي نشأت في

1 Algérie : Terre de foie et de culture : Camal Bouchama; Ed. Houna Boujereaa; Alger ; p. 8; 2000.

بلاد فارس وأدت إلى إحلال الخانقاه والزاوية[1] و محل المنشآت التي كانت تغلب فيها الصفة الحربية على الصفة الدينية.

4- أصل نشأة الزاوية و تطورها :

مما يلاحظ أن الإسلام يمثل دينا متكاملا يجب على كل مسلم أن يؤمن به. فحينما نشأ الإسلام انطبع هذا الدين الجديد ببساطة Simplicité لم يعهدها الإنسان العربي من قبل. والعجب ذاته أنه ارتسم في نفوس الأوروبيين الغربيين، وطبع عقولهم، من ذلك أن هؤلاء أصبحوا فيما بعد و خلال الثورات الحضارية الحديثة لا يؤمنون إلا بما هو عقلي، خاضع للصرامة المنطقية، خاصة بعد الثورة الصناعية، وما نتجت عنه من تغير في الأفكار، وتحول في العلاقات والترابطات البشرية، بفعل تكاثر الثروة وازدهارها، الشيء الذي أدى إلى التوجه نحو التفكير في إيجاد أراضي جديدة، واكتشاف خيرات باطنية أخرى في مختلف بقاع الأرض ولا سيما بعد إنشاء الآلة واستعمال الطاقة كوسيلة مسهلة للتطور التكنولوجي العلمي. ومن أجل ذلك، حاول مفكرو أوروبا دراسة الدين بوصفه علما مستقلا قائما بذاته على غرار باقي العلوم الأخرى.

وتجدر الإشارة إلى أن التحولات التي عرفتها الشعوب في حياتها الاجتماعية، والاستقلالية التي طبعت الحكم الفردي، تعتبر ظاهرة أساسية أثرت في تطور الدين الإسلامي منذ ظهوره، لأن هذا الدين كان قد دخل أوطانا لم تكن تسمع به، ولا تعاملت معه مثل الفرس والترك، والبلاد الشرقية عموما، وبلدان المغرب العربي، إلى غير ذلك من المناطق التي وصلها، فتغيرت طبيعتها الاجتماعية، وتطورت

1 تعرف بالخانقاه في المشرق وبالزاوية في المغرب.

بنتيجة التوسع والانتشار اللذين عرفهما الدين الإسلامي. كما اكتسبت الشعوب الإسلامية تلك الاستقلالية في الحكم الفردي، والتحرر في إبداء الرأي بنتيجة تداخل الثقافة العربية بمختلف ثقافات الشعوب الأخرى التي دخلت الإسلام.

كما أن علماء الإسلام استفادوا من المعارف اليونانية عموما والفلسفية خصوصا، وغرفوا من الفكر الهندي الفارسي مادة معرفية هائلة جعلتهم يتحررون من قيود التقليد الأعمى، والسلوكات الطبيعية، وهذا أمر صحيح إذا علمنا بأن الإسلام اتصل بالحركات الفلسفية التي كان يقودها السوريون القدماء، واليونانيون، والفارسيون، مما أنشأ تصورا روحيا جديدا يتماشى والظروف الاجتماعية الجديدة.

وقد كانت الفرس بعد دخول الإسلام أرضا خصبة لهذا السلوك، ولعل الاعتقادات الدينية المحلية القديمة كان لها أثر واضح في محاولة الشعوب الفارسية المسلمة تجاوز مجرد الخضوع المطلق لله، والبحث عن وسيلة أخرى تقربها منه بطرق روحية معينة.

فلا ريب في أن الطرق الدينية المختلفة والطرق الإسلامية، قد نشأت من تلك الحاجة الماسة لإيجاد وسيلة تقرب المسلم من الله تعالى دون قيد ولا شرط، ودون أمر منه، كما أنها نمت وتطورت في غالب الأحيان على هامش النظام الاجتماعي الرسمي نظرا لكونها تتصف ببعض الخصوصيات المحلية والسياسية والاجتماعية، إلا أن هذه الطرق الدينية المختلفة وخاصة الإسلامية منها لم تنشأ من لا شيء،

و لكنه يمكن أن نعتبر نشوءها نتيجة ظهور عوامل الفرقة والخصام والتنافس في المجتمع العربي في الجزيرة والأمصار، وظهور العصبية العربية ضد الموالي خاصة بعد المؤامرة الفارسية التي دبرت لقتل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حيث بدت قسوة العرب للموالي واضحة مباشرة بعد هذا الحدث. وكانت نتيجة ذلك أن ظهرت الفرق الإسلامية في الأفق بشكل سافر، وبدا الخلاف واضحا بين المسلمين.

أ_ الفرق الإسلامية و أثرها في نشأة الزاوية :

على الرغم من أن الإسلام في كل خصائصه جاء منكرا الفرقة و الخصام، و مقدسا لرأي الجماعة والتشاور، و عاملا على إيجاد التعاون والألفة بين الناس، ومشاركة بعضهم البعض في الأحاسيس والمشاعر. وعلى الرغم من أنه استطاع أن يرسم المبادئ والتعاليم التي تمازج بين مختلف الأجناس البشرية، المتباينة العادات، والمنافرة للطباع، الأمر الذي جعلها ترضاه دينا و تستظل به. على الرغم من هذا كله، فإن الأحداث التي جرت في الجزيرة العربية بعد وفاة النبي (صلعم) أكدت على أن عداء مقنعا للإسلام كان متواجدا بقوة من أجل هدمه والقضاء عليه، فظهرت الفرق الإسلامية التي أوجدت بدورها التشاحن والتصارع بين المسلمين.

وكان أساس الفتنة اختلاف المسلمين في أواخر أيام عثمان بن عفان حول تصرفات الخليفة وولاته على الأمصار، حيث رأى فيها البعض خروجا على مبادئ الإسلام. ومن هنا بدت بذور الثورة على عثمان بن عفان من طرف رجل من أهل

صنعاء هو عبد الله بن سبأ. وكان من قبل يهوديا ثم أسلم. واستفحلت هذه الثورة حتى بلغ بها الأمر أن اقتحم الثوار على الخليفة داره فقتلوه ونهبوا بيته وبيت المال[1].

وبعد تولي على بن أبي طالب الخلافة بعده، زادت المأساة حدة، وأعقبها انقسام العرب إلى أحزاب متباينة ومتضاربة، مما زاد كلمة المسلمين انقساما.

ومن هنا ظهرت الفرق الإسلامية، وأخذت كل واحدة منها اتجاها معاكسا للفرق الأخرى، مما كان نتيجته انزواء كل فرقة بمنطقة متباينة وشعوب إسلامية مختلفة في الطرق والمنهجيات. و أدى في النهاية إلى ظهور ما يعرف بالزوايا. و كان حتما علينا إيراد أهم الفرق الإسلامية، ومختلف تفرعاتها، لأننا نعتبرها من أهم العوامل والأسباب التي أرغمت المسلمين فيما بعد وعبر العصور من الانضمام والانزواء والتعامل مع مختلف الطرق والمدارس الإسلامية والزوايا.

*** الخوارج :**

انحصر النزاع في أول الأمر في حزبين اثنين هما : حزب عثمان وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان، رأس بني أمية، وحزب على بن أبي طالب رأس بني هاشم الذين كان لهم منذ الجاهلية عداء بينهم و بين بني أمية، ولم يزده الإسلام إلا شدة، إذ لم ينس بنو أمية ما كان من حمزة وعلي يوم صرع أكبر رجالهم في معركة بدر، كما لم ينس بنو هاشم ما كان من هند حين لاكت كبد حمزة ومثلت به يوم أحد.

واشتعلت نار الحرب بين الفرقتين حين أبى معاوية الاعتراف بخلافة علي،

1 قصة الديانات لسليمان مظهر، الوطن العربي، د.ت، د.ط، ص 548.

وشق عليه عصا الطاعة واتهمه بدم عثمان.

على أن المعركة التي كانت سجالا كادت تنتهي ذات يوم بانتصار علي ومن معه من أهل العراق، على معاوية وجيشه من أهل الشام، لولا خدعة عمرو بن العاص. وهو على جيش معاوية حين جعل رجاله يضعون المصاحف على رماحهم ليكون كتاب الله حكما بين الفريقين.

فقد اضطر علي إلى قبول التحكيم الذي أراده عليه رجاله من أهل العراق، على الرغم من نصحه لهم بأن لا يغتروا بقول معاوية وأصحابه.

وكان التحكيم خدعة انتصر فيها عمرو وخلع علي، بينما ثبت هو موكله معاوية على الخلافة.

وحين اضطر إلى القبول وأصبح الأمر لمعاوية، انقسم جند علي وخرجوا عليه، وأعلنوا غضبهم لقبوله التحكيم رغم أنهم هم اللذين أرغموه عليه، وأخذوا يلومونه، ويلومون أنفسهم لانخداعهم بخدعة علي.

وكان هؤلاء هم الخوارج ، وكان موقفهم من علي غريبا.

سألهم علي بن أبي طالب : ما أخرجكم علينا ؟

قالوا : حكومتكم يوم صفين.

قال علي : أنشدكم الله، ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم علي رأي، ولما أبيتم إلا ذكر ذلك اشترطنا على الحكمين أن يحكما بما في القرآن. فإن حكما بحكم

القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن، و إن أبينا فنحن من حكمهما براء ؟

قالوا له : فخبرنا، أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟

قال علي : إنا لم نحكم الرجال، وإنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين تقيين لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال. قالوا : فخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟

قال : ليعلم الجاهل و يثبت العالم، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة.

قالوا وهم يهزون أكتافهم : لا حكم إلا لله.

أجاب وهو يمضي : كلمة حق يراد بها باطل[1].

و كان لابد أن يصطدم علي بالخوارج قبل أن يعود لتحكيم السيف بينه و بين معاوية. واستطاع علي أن يقضي على جزء كبير منهم، إلا أن الذين فروا أمام جيشه واصلوا الانتشار سواء في أيام الدولة الأموية، أو الدولة العباسية، على أن الخوارج كان لهم رأيهم في الأمر. فبينما شيعة بني أمية في الشام ومصر يرون أن تكون الخلافة في قريش وأن البيت الأموي أحق بها، وبينما كان شيعة علي بن أبي طالب في العراق يرون أن تكون الخلافة في قريش، وأن عليا وأولاده من بعده أحق

1 المرجع السابق، ص549.

المسلمين بها، كان الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم، ويرون أن كل أفراد الجماعتين الأخريين خارجون على الدين.

وكان هؤلاء الخوارج يمثلون الديمقراطية الإسلامية، إذ كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم عربي حر، وعدلوا شرطهم إلى الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية، خاصة بعد أن انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب وخاصة الفرس.

واصطبغت آراء الخوارج السياسية بالأبحاث الدينية، فقالوا إن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان، وليس الإيمان هو الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب وإنما من اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم لم يعمل بما يفرضه الدين، و ارتكب الكبائر فهو كافر.

وامتاز الخوارج بشدة تمسكهم بالقرآن و اتباع أحكامه، و تنفيذ أوامره، وكان خوفهم من عذاب الله يوم القيامة يثير في نفوسهم الحماس للحق وشدة التمسك به، والامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه، إلا أنهم غلوا في إنكارهم حتى عدّوا مرتكب أي هفوة مهما صغرت كافرا، واشتدوا في معاملة المخالفين لهم، حتى كان كثيرا منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني، ولم يتورعوا عن ارتكاب أشد الأعمال قسوة على الرغم مما كان من ظهورهم بمظهر العباد الزهاد، كما كانوا

يأتون بأفضع المنكرات لا يدينون بالله ولا يعرفون شفقة ولا رحمة[1]. و قد بدت مثل هذه الأحكام والتصرفات في تعاليم بعض الزوايا و الخانقاهات في بعض دول آسيا الإسلامية .

أمّا الأسباب التي أثرت في الخوارج، فأكثرها لا يعود لعوامل داخلية ذاتية بقدر ما يعود لعوامل خارجية، و قد ساهم فيها اختلاط العرب باليهود والنصارى، واختلاطهم أكثر من ذلك، بالفرس إلى إحداث كل الاضطراب الذي دخل على الدين.

وَمن أجل ذلك تفرق الخوارج أنفسهم إلى فرق عدة، كاد عددها يصل إلى عشرين فرقة، لكن هذه الكثرة لم تمنع من أن يكون بين الخوارج مَن يبدو فيهم الاعتدال، وأن يكون بينهم من يميلون إلى المغالاة.

على أن مغالاة بعض فرق الخوارج كانت هي السبب بغير شك في اتهامها هي نفسها بالخروج على الإسلام، وكان من بينها فرقتان بارزتان هما :

* اليزيدية : أتباع يزيد بن أبيه الذي زعم أن الله سيرسل رسولا من العجم وينزل عليه كتابا ينسخ القرآن.

* الميمونية : أتباع ميمون العجردي الذي أباح الاتصال ببنات الابن وبنات أولاد الإخوة والأخوات ، كما أنكـــر سورة يوسف ولم يعدها من القرآن ، و زعم أنها قصة من القصص، وقال إنّه لا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن.

---

1 المرجع السابق، ص 552.

* الشيعة :

لقد كان أساس اعتقاد الشيعة هو أن عليا بن أبي طالب أحق بالخلافة، وأن أبا بكر وعمر و عثمان أخذوا حق الإمامة المقدس من علي.

و كان الأمر قد بدأ سهلا لهم حين تذمر المسلمون من سياسة عثمان بن عفان، فطالبوا بتحويل الخلافة إلى أهل البيت، و أشعل نيران ثورتهم أبو ذر الغفاري بتحريض ابن سبأ الذي أخذ ينتقل في الولايات الإسلامية و وضع عقائد مذهب الشيعة. وفي مصر استقر به المطاف حيث ألبس دعوته لباس الدين، ووضع مذهبا يقول برجعة عيسى، ولا يقول برجعة محمد رسول الله إذ قال :" إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد "[1].

وزاد ابن سبأ "أن محمدا أحق بالرجوع من عيسى "[2] وكان ذلك أساس نشوء مذهب تناسخ الأرواح في الإسلام، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر.

* السبئية :

كان ابن سبأ يهوديا قبل إسلامه، لهذا أخذ بمذهب الوصاية و قال إن عليا وصي محمد، وانه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين، كما قال أيضا بأن عليا هو الخليفة بعد النبي، وأنه يستمد الحكم من الله"[3].

والحقيقة أن ابن سبأ لم يكن خالص الإيمان بالإسلام، بل كان يريد وراء

1 المرجع السابق – ص 556
2 المرجع نفسه، ص 556.
3 المرجع نفسه، ص 556.

دعوته إفساد دعوة الإسلام و تشويه العقيدة و إثارة الفتنة بين المسلمين.

واعتبر أتباع السبئية عليا بأنه هو الله، وحتى بعد وفاته قالوا بأنه سيرجع مرة أخرى، وأنه هو المهدي المنتظر. كما قالوا بأن الشخص الذي قتل هو ليس عليا، وإنما شيطانا تصور للناس في صورة علي، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم، واعتبروا أن الرعد صوت علي والبرق نوره.

واستمرت هذه الشيعة حتى بعد مقتل علي بن أبي طالب، ونزول ابنه الحسن عن الخلافة.

إلا أن الحسين بن علي رغم أنه لم يحاسب أهل الكوفة بما فعلوه في أبيه وأخيه، تبعهم إلى أرضهم على أن يناصروه ضد يزيد بن معاوية، فإن أهل الكوفة خذلوا الحسين، وكانت موقعة كربلاء التي قتل فيها ابن بنت رسول الله. ومنذ تلك الحادثة زادت نار التشيع حدة في صفوف الشيعة وخاصة الفرس، وأصبح الشعور بالعداء للأمويين يثور لأتفه الأسباب، و واصل بعد ذلك الشيعة صراعهم ضد الأمويين.

*** الكيسانية :**

إن الشيعة هي الأخرى انقسمت أقساما عديدة أبرز فرقة ظهرت كانت تسمى الكيسانية التي تزعمها محمد بن الحنيفة أصغر أبناء علي بن أبي طالب، والذي كان في نظر أهلها يحيط الأئمة بالعلوم الإلهية، وبالأسرار السماوية، وبعلم التأويل والباطن، وكان أهل الكيسانية يكنون له الطاعة، التي اعتبروها ما هي سوى طاعة

للقانون الإلهي[1].

و قد لوحظت مثل هذه التعاليم والاعتقادات في بعض الزوايا خاصة في تركيا و بلاد المغرب.

و اعتقدت الكيسانية بأن الله يغير ما يريد، وآمنوا بتناسخ الأرواح والحلول من جسد إلى آخر، كما اعتقدوا بنبوة علي والحسن والحسين و ابن الحنيفة. وعندما مات ابن الحنيفة أنكروا موته وقالوا إنه يقيم في جبل رضوى على مسيرة سبعة أيام من المدينة، وأن عودته ستكون من هذا المكان.

وإذا كان للشيعة أثر كبير في سير الإسلام، فقد كانت هناك طائفتان أخريان هما، المرجئة، والمعتزلة.

*** المرجئة :**

ظهرت للوجود في دمشق عاصمة الأمويين بتأثير كبير من بعض العوامل المسيحية. و لقد بينوا إيمانهم على إرجاء الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث، وعدم إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها. وكانوا يرون بأنه لا يمكن تكفير إنسان أيا كان مهما ارتكب من المعاصي، ما دام اعتنق الإسلام ونطق الشهادتين، ويترك أمر حسابه أو عقابه إلى الله وحده، فكان من الطبيعي أن تدفع مثل تلك العقيدة أصحابها إلى ترك الفروض التي فرضها الدين من صلاة و زكاة

1 المرجع السابق، ص 557.

و صوم، و أن يضعوا واجبات الإنسان نحو من يحيط به من الناس فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن.

*** المعتزلة :**

كانت نشأتهم عندما اختلف واصل بن عطاء مع أستاذه الفقيه حسن البصري، في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنبا كبيرا، أيسمى مؤمنا أم كافرا. وقال واصل أن مثل هذا الشخص لا يعتبر مؤمنا، ولا يسمى كافرا، بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتين. واعتزل واصل ناحية بعيدة عن المسجد يشرح رأيه لأتباعه، وبذلك سموا بالمعتزلة، و سموا كذلك بالقدرية لأن مذهبهم يقبل بحرية إرادة الإنسان. و تتكون عقيدة المعتزلة من خمسة أصول :

- التوحيد - العدل - التوبة
- المنزلة بين المنزلتين - الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر

كل هذه الاختلافات وهي قليلة من كثير حدثت عندما استمر انقسام المسلمين إلى فرق متنازعة متضاربة، وكان الفرس لا يخفون سمومهم لإفساد عقيدة المسلمين. وأخطر الخلافات ظهرت عندما انقسمت فرق السبعة إلى أكثر من حزب، وأدخلت على الدين بعض البدع لابد أن تؤدى، ومن بين تلك الفرق "الغرائبية" التي زعمت أن الله أرسل جبريل إلى علي بن أبي طالب، فأخطأ وذهب إلى محمّد.

ومن فرق الشيعة التي لا تزال حية إلى اليوم ثلاث فرق رئيسة هي : الإثنا

عشرية، واليزيدية، والإسماعلية.

* الإثني عشرية : وقد سموا كذلك لأنهم يسلسلون أئمتهم إثنى عشر إماما، أولهم علي بن أبي طالب و آخرهم محمد المهدى، و هم كذلك يؤمنون كغيرهم من الشيعة بالإمام الخفي، و ينتظرون آخر الزمان ليظهر على الأرض و يقضي على المفاسد والشرور.

* الزيدية : يعدون من فرق الشيعة المعتدلين. فهم لا يؤمنون بعصمة الإمام المستور عن الخطأ، ولا بالعلم الباطني الذي يهبه الله للأئمة دون غيرهم، ولكنهم يؤمنون بتفرق علي بن أبي طالب عنهم في قوة الإدراك و الصفات الحميدة.

* الإسماعلية : وهي الفرقة الأشد قوة وتنظيما من كل هذه الفرق، فهي جمعية منظمة تنظيما دقيقا، لها تعاليم سرية. وهي التي كانت تنتسب إليها الدولة الفاطمية المؤسسة في مصر. و قامت في أواخر القرن الثالث الهجري نسبة إلى الإمام السابع من الإثنا عشرية وهو إسماعيل بن أبي جعفر الصادق. وقالوا لتأكيد الإمامة فيه " إن السماوات سبع، والأراض سبع، والأيام سبعة، وكل ذلك دليل على أن دور الأئمة يتم بسبعة "[1].

وإذا كان كثير من مبادئ هذه الفرق و أفكارها قد نجده في تعاليم الزوايا فإن الفرق الإسلامية كانت هي الأخرى رافد من روافد الزاوية ومؤثرا حقيقيا في نشأتها

1 المرجع السابق – ص 566.

و بناء صرحها.

ب- الطرق الإسلامية :

مصطلح طريقة والجمع طرق، لفظ عربي يعني السبيل أخذ معنيين اصطلاحيين متعاقبين في التصوف الإسلامي، فهو في القرنين التاسع والعاشر من التاريخ الميلادي عبارة عن منهج لعلم النفس الأخلاقي، يدبر عمليا ضروب السلوك الفردي، وبعد القرن الحادي عشر الميلادي أصبح عبارة عن جملة مراسيم للتدبير الروحي المعمول به من أجل المعاشرة في الجماعات الإخوانية الإسلامية المختلفة التي بدأت تنشأ منذ ذلك الحين.

وقد ظلت لفظة "طريقة" غامضة في البداية، و أصبحت تدل على منهج نظري مثالي، من شأنه أن يدبر كل سلوك، وذلك برسم طريق لسفر النفس إلى الله، تسلكه خلال منازل نفسية مختلفة هي المقامات والأحوال. وهي التطبيق العملي الحرفي للشريعة حتى الوصول إلى الحقيقة. و أثارت هذه الدعوة الجريئة اضطهادا من جانب الفقهاء، وعين أئمة التصوف طرائقهم وحدودها على مقتضى أنماط أكثر ملائمة للسنة، جامعين لآداب الصوفية، ومراعين الفتح على أنه الغاية للوصول المباشر إلى الحقيقة. و أصبحت الطريقة تدل على المعاشرة القائمة على الرعاية الإسلامية العادية، وعلى سلسلة من الوصايا الخاصة لكي يصبح الإنسان مريدا.

و المريد هو (الفقير، وبالفارسية درويش) يتلقى البيعة أو التقليد أو الشد أمام طائفة من الشهود ذوي المراتب من شيخ، ومرشد، ومقدم، ونقيب، وخليفة، وترجمان. وينبغي عليه أن يعمل كما لو كان متبعا نظام حياة قوامها العزلة والخلوة،

وَالأربعيـــنية[1]، وَذلك بالقرب من ذوي المراتب، هؤلاء في رباط أو زاوية للطريقة التي تعيش على الهدايا وَالتي يُشيَّد بناؤها عامة بالقرب من ضريح ولي من الأولياء يُحتفل بمولده، و تُلتمس في زيارته البركة.

وَ تتميز حياة المعاشرة في داخل الرباط أو الزاوية بين الإخوان برباطات من قبيل النوافل كالسهر والصيام والورد، يُرَدَّد الدعاء بـــ "يا لطيف" مائة مرة أو ألف مرة، والذكر أو الحزب لا سيما في مراسيم معينة، كما تتمثل بالرخص مثل جمع الصدقات، وبالحضرة وَالزهد وَالزردة[2].

وقد دأب الفقهاء السنيون على محاربة البدع التي انتشرت على أيدي الطرق، خاصة رياضاتُهم التي هي من قبيل النوافل وَ رخصهم، وَثيابهم (عمامات مميزة بعصابات ملونة، كلاح، تاج، إلخ...)، واستعمالهم للمنبهات (قهوة وَ حشيش وَ أفيون، إلخ ...). وَاعتقاداتهم في التأثير الفعال الخارق للتلقين والبركة، وخضوعهم الأعمى للكشف الإشراقي الفردي وَالفوضوي لكبير غير مسؤول. وقد عنوا عناية خاصة بالنقد التاريخي لإسناد البيعة، مظهرين ما في هذه السلاسل من ثغرات و مجانبة للتصديق.

وفي تركيا، كثيرا ما كانت الحكومة تضطهد الجماعات الإخوانية من أجل صلاتها الشيعية، وَفي البلاد الإسلامية الأخرى. وعلى الرغم من بعض جهود الإصلاح الهامة من الناحية الأخلاقية في "الهند" مثلا أو العقلية في "الجزائر"، أصبحت هذه الجماعات في حالة اضمحلال كامل. فالشعبدات البهلوانية لبعض

1 الانعزال لمدة أربعين يوما يتم فيها ذكر الأوراد والقيام بالصلوات التي تقرب المريد إلى الله عز وجل.

2 سيأتي تعريف مثل هذه المصطلحات في مبحث الوظيفة الغوية.

المريدين، والانحلال الأخلاقي لكثير من الرؤساء جعلها كلها تقريبا عرضة لعداوة الصفوة من المسلمين المحدثين.

ج- تصنيف الطرق الإسلامية :

إن المحاولات المنفصلة لإقامة حياة المعاشرة في الإسلام لم تبدأ تسمى المريدين باسم جامع إلا في سنة 814 م بالأسكندرية والكوفة، وهو اسم الصوفية. وبعد سنة 857 م، بدأ هذا الاسم يستعمل استعمالا عاما غير محكم للدلالة على جملة الأدعية الصوفية في العراق، حيث نشأت فيه بذور أكثر كثافة متمثلة في "السالمية" و "الحلاجية". و قد ظل هذا الاسم طوال قرنين و نصف مقابلا لاسم "الملامتية"، وهو اسم أطلق على صوفية "خراسان" الذين كانوا أكثر جدية[1].

ففي الفترة الأولية، لم يشتمل التصنيف الذي ورد إلا على تسميات لم يراع فيها الترتيب الزمني. وقد بعث هذا التصنيف مصطنعا منذ القرن الثالث عشر الميلادي على أيدي كتاب الطبقات والمناقب المسلمين، مع أسماء المدارس المذهبية الموثوق بها، والتي بعثت بغير حق بأنها طرق دينية.

أما فيما بعد القرن الثاني عشر، فإن التصنيف يلقي ضوءا واضحا و تحديدا بارزا على المؤسسات المختلفة للجماعات الإخوانية التي يمكن أن يلخص تاريخها على الوجه التالي : نشأت بين الصوفية الخفيفية طريقة فرعية هي "الكازرونية" (1024 م). و بين الصوفية "الجنيدية"[2]، طريقة أكبر من ذلك يدير شؤونها رؤساء هم (الجرجاني، والفرمدي، والنساج وأحمد الغزالي) وهي طريقة تقسمت رعايتها أخيرا في القرن الثالث عشر ثلاث رئاسات هي :

- "الخواجه كان" : ويترأسها يوسف الهمذاني المتوفي سنة 1140 م
- و "الكبراوية" : ويترأسها كبرا المتوفي سنة 1221 م

---

1 دائرة المعارف الإسلامية، مقال : التصوف، تأليف، م 15، ص 175.

2 نسبة إلى الجنيد.

– و "القادرية" : ولو أن مؤسسها توفي سنة 1166 م إلا أن رعايتها لم تنظم إلا بعد خمسين سنة من بعد.

وإلى هاتين الطريقتين الأخيرتين، يضيف أحمد بن القاضي في كتابه (القواعد الواقية) : "الرفاعية المدنية" التي عرفت بـــ "الشاذلية" من بعد، و "الحشتية"، وبذلك أقام مجموعة الطرق الإسلامية الخمس الأوائل. وسرعان ما أضاف آخرون في هذا المقام الطرق التالية "القلندرية"، و "الأحمدية"، و "المولوية"، وذلك في القرن الثالث عشر، و "البكتاشية"، و "النقشبندية"، و "الصوفية" و "الخلوتية" في القرن الرابع عشر مع الفروع التي اندرجت تحتها فيما بعد. وفي القرن الخامس عشر، كان إصلاح الجزولي في المغرب، وظهور "الشطارية" في الهند و سومطرة. وأخيرا، وفي القرن التاسع عشر، كان مع إصلاح "القادرية" و "الشاذلية" تأسيس "التيجانية" و "الدرقاوية" و"السنوسية".

وفي الوقت الحاضر لم تتجمع طريقة من هذه الطرق الكبرى عدا "السنوسية"، و "المولوية"، ومن حيث أن الرابطة التي تربط بين المريدين ليست دائمة ولا مقصورة على طائفة بعينها، فإنها تصبح في كثير من الأحيان مهلهلة تماما. و قد أثبتنا في ملحق خاص أكثر الطرق انتشارا في الوقت الحاضر في العالم و المتأرجحة بين كونها طريقة و زاوية قائمة بذاتها.

و من الملاحظ أن نظرة فاحصة لتلك الطرق ستكشف بما لا يدعو إلى أدنى شك أن ما حصل من تغيرات على طبيعة هذه الطرق و وظائفها و أنظمتها كان العلة المباشرة في نشأة الزوايا و تشعبها وانتشارها.

الفصل الثاني

وظيفة الزاوية الدينية

و الأخلاقية والاجتماعية

1- الوظيفة الدينية

إنّ المتبع لخطى الزاوية في نشأتها و نموها وتطورها يلمس دون ريب مدى اتصال هذه المؤسسة بالوسط الاجتماعي التي تحيى فيه. ومن ثمّ، يعتقد اعتقادا صادقا بأنّها تتكفل بوظائف متعددة و مختلفة، منها الدينية والأخلاقية والاجتماعية والتربوية والنفسية واللغوية.

أولا : الوظيفة الدينية :

بعدما وقفنا على مفهوم الزاوية، وَ ذكرنا المراحل المختلفة التي مرت بها عبر التاريخ الإسلامي في أزمنته وَعصوره، وقبل أن ندخل مباشرة في سرد الوظائف الثقافية التي تقوم عليها الزاوية، وبما أن أصل مشايخ الزوايا من المتصوفين أو منحدرين من سلالات صوفية، ارتأينا أن يكون موضوع التصوف هو الأساس في المجال الثقافي الديني. فكان لزاما علينا أن نتخذه ظاهرة دينية عرفها التاريخ الإسلامي ومازال يعرفها إلى يومنا الحاضر. ومن أجل التدقيق في الوظائف الثقافية للزاوية، كان جديرا علينا أن نذكر شأن الصوفية في الجماعة الإسلامية وكيف كان ينظر إلى معنى الاتحاد وَتطوره في تاريخ التصوف، وما هي السمات التي يتميز بها المتصوف، كما ارتأينا بأنه من الأجدر أن نمرّ على مصادر التصوف ونشأة كلمة صوفي، وما هي علاقة التصوف بالولاية وكرامة الأولياء الصالحين، والذين في غالبيتهم يكوّنون المراكز الأساسية للزوايا اليوم.

وَ إنّما دفعنا إلى الوقوف على موضوع التصوف ما له من علاقة وثيقة بالزاوية و كذلك مدى التأثير العميق في نشأتها و ظهورها إذ يذهب كثير من

الباحثين إلى أنّ الزاوية هي امتداد ديني مؤكد لحركة التصوف[1].

1- أصل كلمة "التصوف " :

التصوف مصدر الفعل الخماسي المصوغ من "صوف" للدلالة على لبس الصوف ، ومن ثم كان المتجرد لحياة الصوفية يسمى في الإسلام صوفيا.

وهناك من قال بأن أصل الكلمة يعود نسبة إلى " أهل الصفة " وهم فريق من النسك كانوا يجلسون فوق دكّة المسجد بالمدينة المنورة لعهد النبي، أو أنهم من الصف الأول من صفوف المسلمين أثناء تأدية الصلاة، أو أن الصوفيين يسمون كذلك لأنهم من بني صوفة، وهي قبيلة بدوية، أو أنهم نسبوا إلى "الصوفانة" وهي بقلة، أو إلى الصوفة "القفا" وهي الشعرات النابتة عليه، أو أن الأصل مشتق من "صوفي" مطاوع صافي والأصل صفا. وقد استعمل هذا اللفظ المطاوع منذ القرن الثامن الميلادي للتورية مع كلمة صوفي بمعنى المتنسك الذي يلبس الصوف[2].

وَ ورد لفظ "الصوفي" لقبا مفردا لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، إذ نعت به جابر بن حيان وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل الكوفة، له في الزهد مذهب خاص، وأبو هاشم الكوفي المتصوف المشهور[3].

وَصيغة الجمع "الصوفية" ظهرت في عام 199 هـ الموافق لسنة 814 م في خبر فتنة قامت بالأسكندرية، فكانت تدل في ذلك العهد فيما يراه الجاحظ على مذهب من مذاهب التصوف الإسلامي. يكاد يكون شيعيا نشأ في الكوفة. وبذلك فإن كلمة

---

1 Confréries religieuses musulmanes, p. 89

2 دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس، ص 266.

3 المرجع نفسه، ص 266.

"صوفي" كانت أول أمرها مقصورة على الكوفة[1].

وَأصبح لهذا الاسم شأن خطير فيما بعد، فبعد خمسين سنة من صدوره وانتشاره، أصبح يطلق على كافة الصوفية بالعراق في مقابل "الملامتية" وَهم الصوفية بخراسان، ثم أصبح هذا الاسم يطلق فيما بعد ذلك بقرنين من الزمن على كافة أهل الباطن من المسلمين. وأصبحت لبسة الصوف "عباءة من الصوف" من أخص أزياء المسلمين من أهل السنة، كما أن هذا اللباس استقبح في حوالي عام 100 هـ الموافق لسنة 719 م. وَ قيل عنه بأنه لباس نصراني دخيل في الإسلام[2].

إن النزوع إلى التصوف لم يخل منه قطر من الأقطار، أو أمة من الأمم. وقد ثبت بأنه لم يعز البلاد العربية الإسلامية في القرنيين الأوليين للهجرة، ومن ذلك نجد الجاحظ و ابن الجوزى، وهما من القصاص قد ذكروا ما يفوق اسم أربعين زاهدا عاشوا في ذلك العهد وثبتا بدلائل بينة على أنّهم عرفوا حياة التصوف.

2- مكانة الصوفية في الجماعة الإسلامية :

إنّ السؤال المطروح هنا هو: هل يوجد في الإسلام رهبانية و هل الرهبانية كانت من خصائص المتصوفة؟ وهل الرهبانية كأسلوب ديني في الحياة قد انتقلت إلى شيوخ الزاوية؟. لقد ورد في حديث النبي الشريف (صلعم) :" لا رهبانية في الإسلام"[3]. و قد ذهب ابن الأثير إلى أنّ الرهبانية من رهبنة النصارى. وأصلها من

---

1 البيان و التبيين للجاحظ، ج 1، ص 194.

2 دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس، ص 266.

3 نهاية ابن الأثير، ج2، ص 280.

الرهبة أي الخوف، كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا، و ترك ملاذها، والزهد فيها، وَالعزلة عن أهلها، وَتعمّد مشاقها، حتّى أن منهم من كان يخصى نفسه، و يضع السلسلة في عنقه، و غير ذلك من أنواع التعذيب، فنفاها النبي (صلعم) عن الإسلام و نهى المسلمين عنها[1].

غير أنّ ماسنيون ذكر في مقالة له أنّه :" لم يعد من الجائز أن يقال إنّ محمدا أخرج المتصوفة ابتداء من الجماعة الإسلامية، إذ لا يخفى على أحد اليوم أنّ الحديث المشهور (لا رهبانية في الإسلام) الذي ذهب -شبرنجر- في تفسيره هذا المذهب، حديث موضوع. و ليس من شك أنّه وضع في القرن الثالث الهجري على أكثر تقدير تحبيذا و تدعيما لتفسير جديد للآية السابعة والعشرين من سورة الحديد التي ورد فيها ذكر الرهبانية، وهو تفسير يحرّمها و يعيذ الإسلام منها....[2].

و يضيف ماسنيون في المقال نفسه أن مفسري القرون الثلاثة الأولى للهجرة أمثال مجاهد، وَأبي أمامة الباهلي قد أجمعوا على تفسير هذه الآية تفسيرا يجيز الرهبانية و يمتدحها. و قد وقف في وجههم تفسير معارض لذلك غلّبه الزمخشري في تفسير الكشاف حين قال في تفسير قوله تعالى :(وَجَعَلْنَا في قُلُوب الذينَ اتَّبَعُوهُ رَأفَةً وَ رَحمَةً وَ رَهْبَانيَةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلاَّ ابْتغَاء رضْوَانَ الله)[3] : " الرهبانية ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة

1 المصدر السابق، ج2، ص 280.
2 دائرة المعارف الإسلامية، مقال التصوف للويس ماسنيون، ج5، ص 267
3 سورة الحديد، الآية 27.

و ذلك أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى عليه السلام فقاتلوهم ثلاث مرات، فقتلوا حتّى لم يبق منهم إلاّ القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية ومعناها الفعلة المشبوهة إلى الرهبان وهو الخائف، فعلان من رهب كخشيان من خشي، و قرئ (وَ رُهبانية) كأنّها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب و ركبان. و انتصابهما بفعل مُضمر يفسّره الظاهر تقديره (وابتدعوا رهبانية). و (ابتدعوها) يعني وأحدثوها من عند أنفسهم، و نذروها وَ (ما كتبناها عليهم) لم نفرضها نحن عليهم "[1]. و هو التفسير المعارض الذي أشرنا إليه من قبل.

وَ يرى لويس ماسنيون من جهة أخرى أنّ المسلمين يزعمون أنه كان بين الصحابة رجلان يعدان بحق السابقين إلى التصوف وهما أبو ذر وَ حذيفة، ولم يثبت ثبوتا قاطعا أن أويسا وَ صهيبا كانا على شاكلة هذين الصحابيين. وجاء بعد هؤلاء، النساك، والزهاد، والبكاؤون، والقصاص، وكانوا أول أمرهم متفرقين لا رابط بينهم، ثم تجمعوا فريقين، شأنهم في ذلك شأن بقية المتفقهين في سائر العلوم الإسلامية، وكان مركز الفريقين على حدود أرض الجزيرة من صحراء العرب، أحدهما في البصرة، والآخر في الكوفة[2].

و يضيف قائلا :" وكان العرب الذين استوطنوا البصرة من بني تميم، مفطورين على النقد لا يؤمنون إلا بالواقع. وكانوا يعتنون بالمنطق في النحو، والواقع في الشعر والنقد في الحديث، وكانوا على مذهب أهل السنة مع جنوح إلى المعتزلة والقدرية، وكان شيوخهم في التصوف الحسن البصري[3] المتوفى عام 110 هـ الموافق 728 م[4].

1 تفسير الكشاف : الزمخشري، القاهرة، دار المصحف، ج6، ص 87.
2 ينظر دائرة المعارف الإسلامية : مقال التصوف للويس ماسنيون، ج5، ص 267.
3 هو الحسن بن يسار، أبو سعيد، كان إمام أهل البصرة و عبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك (ينظر ترجمته في الأعلام للزركلي، ج2، ص226).
4 دائرة المعارف الإسلامية، ج5، ص 267.

ثمّ يشير إلى عرب الحظيرة الثانية وهي الكوفة فيستطرد في قوله :" أمّا العرب الذين استوطنوا الكوفة، فكانوا من اليمانية، أصحاب مثل وتقاليد، يستهويهم الشواذ في النحو وَالخيال في الشعر وَالظاهر في الحديث. وكانوا على مذهب الشيعة مع ميل إلى المرجئة[1].

وَ قضى منصور بن عمار وأبو العتاهية وعبدك الشطر الثاني من حياتهم في بغداد قصبة الدولة الإسلامية التي غدت مركز الحركة الصوفية بعد عام 250 للهجرة، وهو العام الذي بدأت تعقد فيه الاجتماعات والحلقات للتناظر في شؤون الدين، وتلقى فيه أولى الدروس الصوفية في المساجد "[2].

و يبدو أنّ المتصوفة الأوائل لم يفوزوا برضى الفقهاء في بداية أمرهم، وربّما كان هذا السخط من أولي الأمر من الجماعة الإسلامية هو السبب المباشر في اختيارهم العزلة، وجنوحهم إلى الفقر والعيش التقشفي تقربا إلى الله سبحانه وتعالى. وكان هؤلاء المتصوفة يعتقدون بأنّ التحلي بالنهج الصوفي لم يكن يهدف إلى ثورة الضمير على ما يصدر من مظالم عن الناس، و إنّما هو ما يقوم به الإنسان من ظلم لنفسه، الأمر الذي جعل الصوفي يخلو في كثير من الأحيان بذاته وَ نفسه وَ شخصيته عن غيره من الناس. وينجرّ عن هذه الخلوة الصيام عن كلّ شيء والابتعاد عن كلّ لذة، و تفادي كلّ مظلمة، والفرار من كلّ منكر. ومعنى هذا أنّ الصوفي في خلوته و عزلته يفرغ من قلبه كل ما من شأنه أن يدنس جوهره وطينته

1 المرجع السابق، ص 267.

2 المرجع نفسه، ص 268.

وَيملأه بكمال يقرّبه إلى الخالق الباري، و يجعله يفوز بحظ من المقامات العليا بمصادرها ومواردها و بدايتها ونهايتها وحدودها وقيودها، فيفلح بالهمم السوابق وهي :" قوى النفس التي تنفعل بها بعض الموجودات بإذن الله تعالى... وهذه الهمم (هي التي) تكون للأولياء كرامات، و قد تكون لغيرهم استدراجا وَمكرا كما تكون للعائن[1] و الساحر"[2].

و قد تجلى هـذا المبدأ في حـياة كثير من رجال التصوف أمثال مالك بن أنس الذي كتب ليحيى بن يزيد :" فأمّا ما ذكـرت لي أنّي آكل الرقاق و ألبس الدقاق، و أحتجب و أجلس على الوطيء، فنحن نفعل ذلك و نستغفر الله سبحانه وَ تعالى..."[3]، أو ما حكي عن عطاء السلمي رضي الله عنه :" أنّه بقي سبعة أيام لم يذق شيئا من الطعام، ولم يقدر على شيء، فسرّ قلبه بذلك غاية السرور، و قال : يا ربّ، إنْ لم تطعمني ثلاثة أيام أخر لأصلينّ لك ألف ركعة "[4].

وقد تصدى لحركة التصوف الفقهاء والمتكلمون لما أسخطهم من أنّ هؤلاء المتصوفة " يرون أناسا يتحدثون عن نشدان الضمير، و يحتكمون إلى قضائه الباطني، في حين أنّ شريعة القرآن تحاسب على الأعمال الظاهرة، وتعاقب الناس على آثامهم، ولا حيلة لها مع النفاق في الدين، ولذلك حاولوا أن يبيّنوا أنّ حياة

---

1 العائن : هو من يصيب بالعين أي الحاسد.

2 غيث المواهب العالية في شرح الحكم العطائية لابن عبد الله العباد النفزي الرندي، تحقيق د. عبد الحليم محمود و د. محمود بن شريف، القاهرة، مطبعة السعادة، ط1، 1380هـ/1970م، ص 59.

3 إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي، دمشق، عالم الكتب، ج1، ص 60.

4 غيث المواهب العالية في شرح الحكم العطائية لابن عبد الله العباد النفزي، ص 5.24

الصوفية لا محالة مفضية بهم إلى الزيغ، لأنّهم يقولون إنّ النية مقدّمة على العمل، وأنّ السنّة خير من الفرض، وأنّ الطاعة خير من العبادة "[1].

وهو أيضا العهد الذي اشتهر فيه الخلاف جهرة ولأول مرة بين المتصوفة والفقهاء، وسيق فيه أمام قضاة بغداد بعض أئمة المتصوفة ما بين عامي 262 و 269 للهجرة، وَ كان من بينهم شيخ الصوفية الحلاج[2].

و قد وقف في وجه المتصوفة عدد من الفرق الإسلامية على رأسهم فرقة الخوارج التي أبدت عداءها المطلق لأهل التصوف. و كذلك الإمامية في القرن الثالث الهجري الذين رفضوا كل ميل لرؤية تصوفية، لأنّ ذلك من شأنه أن يحدث في وسط المؤمنين صورة شاذة من الحياة تتشكّل في إنكار المتصوفة سلسلة الأئمة الإثنى عشر وطلب الرضى. كما أنّ أهل السنّة أجمعوا في موقفهم على إنكار التصوف، في حين دحضه فريقان، أحدهما "الحشوية"[3]. وَ كان بن حنبل فيما ذكره ماسنيون يأخذ على التصوف أنّه يغذي التفكير ويصرف أصحابه عن ظاهر العبادة، ويحمّلهم على طلب الخلّة مع الله، فيستبيحون إغفال الفرائض. وَ كان "خشيش" وَ "أبو زرعة" وهما ممن تتلمذا لابن حنبل يجعلان المتصوفة طائفة من الزنادقة و يطلقون عليهم مصطلح "الروحانية"[4].

وَأمّا "المعتزلة" و "الظاهرية"، فيستنكرون العشق لأنّه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه، و يقوم من الناحية العملية على الملامسة والحلول. والمعروف أنّ المعتزلة أدركوا " أنّ عامة المسلمين قد اكتفوا بقبول المعنى الظاهر للنصوص القرآنية، و أنّ مفاهيمهم بهذا الصدد لم تكن لتتخطى مستوى الإدراك أو التصوّر

1 دائرة المعارف الإسلامية، ج5، ص 268.
2 المرجع نفسه، ص 268.
3 وهم أهل الحشو، وهو لقب تحقير أطلق على أولئك الفريق من أصحاب الحديث، الذين اعتقدوا بصحة الأحاديث المسرفة في التجسيم من غير نقد، بل فضلوها على غيرها و أخذوها بظاهر لفظها.
4 دائرة المعارف الإسلامية، ج5، ص 9.26

الإنساني الشائع البسيط، و من ثمّ فإنّ فريقا منهم قد وقع في حظيرة التجسيم والتشبيه مع صدق إيمانهم، واكتفى فريق آخر منهم بقبول الآيات الغامضة المتشابهة كما وردت في التنزيل دون بحث أو تعمق مفوضين الأمر في ذلك كله إلى الله تعالى، معتقدين أنّ العقل معزول عن الوحي، و أنّه قادر عن إدراك مراميه ولهذا وجب التسليم به دون جدل أو تأويل "[1].

-3أسس التصوف :

لقد ارتكز التصوف منذ بداية نشأته على أساسين واضحين أولهما أنّ العكوف على العبادة يولّد في النفس فوائد هي الحقائق الروحية، وهو ما أنكره "الحشوية". وثانيهما أنّ علم القلوب يفيض على النفس معرفة تنطوي على استعداد الإرادة لتلقي هذه الفوائد وهو ما أنكره المعتزلة.

وهذان الأساسان هما في الحقيقة موضوع الصوفية. فقد ذكر العقاد أنّ الصوفية نوعان :" نوع العقل والمعرفة، و نوع القلب والرياضة... و هؤلاء الصوفيون العقليون يذهبون بالعقل إلى غاية حدوده، ولا يتهيّبون الشكوك والاعتراضات بل يقولون بلسان الغزالي، إنّ الشكّ أوّل مراتب اليقين، و لكنهم متى بلغوا بالعقل غايته ملكتهم نشوة الوجدان فأسلموا أمرهم كلّه إلى الإيمان. وليس اشتغالهم بالعقل مانعا لهم أن يشتغلوا بالرياضة النفسية وإنما يشتهرون بأفكارهم لأنّها الصلة بينهم و بين تلاميذهم و مريديهم و قرائبهم، و تغلب شهرتهم بالفكر على شهرتهم بالرياضة.

1 تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام: د. محمد علي أبو ريان، بيروت، دار النهضة العربية، 1976،ص 163

أمّا الصوفيون القلبيون فهم يلتمسون المعرفة المباشرة برياضة النفس على قمع الشهوات، وَعندهم أنّ شهوات الإنسان هي الحائل بينه و بين النور، فإذا ملك زمامها و أفلت من قيودها تكشف له النور و وصل إلى مرتبة العارفين، و أغناه صفاء النفس عن دراسة الدارسين وبحوث الباحثين "[1].

وهذا المنحى الثاني هو الغالب نسبيا على شيوخ الزاوية الذين يتصفون في أغلبيتهم بالجهل القاتم وضعف في العلوم والمعارف. فيجنحون لتعويض ذلك إلى تأليف أفكار خاصة مع ترددها في مناسبات خاصة في الزمان والمكان، وَتنظيم حفلات موسمية خاصة بوليّهم أو بشيخهم تقام خلالها "الوعدة" أو "الزردة" مع إجادة صلوات معينة يرتلونها ترتيلا تنتهي بهم في غالب الأحيان إلى شطحات و رقصات يبدون فيها و كأنهم فقدوا وعيهم و غابت أرواحهم عن أجسادهم، وَ ولجوا في لاشعورهم فتمتلكهم غيبوبة عجيبة يجدون فيها طمأنينتهُم و راحة بالهـم.

-4خصائص التصوف :

إلى جانب هذا يقوم مذهب التصوف على مبدأ الإسناد والغيب والرخص.

فأمّا الإسناد فمعناه أنّ سلسلة المتصوفين تصل بشكلٍ مباشر إلى النبيّ (صلعم) وهو عين التفكير عند أهل الزوايا الذين يعتقدون اعتقادا راسخا بأنّ شيوخهم و أولياءهم ينحدرون من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام.

أمّا فيما يتعلق بالغيب، فالمتصوفة يعتقدون بأنّ رجالهم طبقات، و أنّ العالم يدوم بقاؤه بفضل تدخل طبقة من الأولياء المستورين و عددهم محدود، وكلّما قبض

1 الإسلاميات : عباس محمود العقاد، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1974، م5، ص 394.

منهم واحد خلفه غيره. وَرجال الغيب عند المتصوفة عبارة عن نقباء وَأبدال وَأمناء وَعُمد ثم القطب وهو الغوث، وَقد أدرك أبو مدين شعيب ولي تلمسان الصالح هذه الدرجة الأخيرة.

و للزاوية طبقات من الرجال و رتب يتدرّج فيها المريد طيلة حياته و احتكاكه بالزاوية. فهناك الشيخ الذي يمثل السلطة المطلقة التي تأتيها الأوامر من الله سبحانه وتعالى مباشرة كما يعتقد كثير من أهل الزاوية، ثمّ الخليفة وهو الذي يخلف الشيخ أثناء غيابه، ثمّ النائب الذي يتكفّل أحيانا بمهام الخليفة ولكن دون أي سلطة رسمية، وقد يكون محاسبا و أمينا لمال الزاوية، ثمّ المقدّم وهو عامل الشيخ في جميع الجهات التي يوجد فيها مريدو الزاوية. ثم "الشاوش" و "الرقاب" وَ "الإخوان"، و أخيرا "المريد"[1].

أمّا الرخص، فهي أساس حياة المتصوفة، والغالب أنّها رخص لا نظير لها، ولا حدّ لسطوتها، و هي قديمة العهد. ومن الملاحظ أنّ الصوفية ينشدون في حلقاتهم أشعارا خاصة تدور موضوعاتها غالبا حول الخمر التي حرّمها الشرع في هذه الدنيا، و ادّخرت لجَنَّة أهل الخصوص، و يتغنّون بكأس المحبة التي يديرها الساقي عليهم مسترسلين في تلويحاتهم، فيمتلكهم هيجان يخرج بهم عن الطور في كثير من الأحيان.

و يتمتع أهل الزوايا أيضا برخص من شأنها أن تحرّرهم من التبعات كمزج الأفيون في الشاي مثلا، والتلذذ بالأشعار الخمرية، و إنشاد الغزليات.

1 Confréries religieuses musulmanes : P. J. André, Alger, Ed. La maison des livres, 1956, P. 60/61.

5- مصادر التصوف :

ممّا لا شكّ أنّ دراسة مصادر التصوف لا يمكن القيام بها إلاّ إذا أجبنا عن بعض الأسئلة التي طالما شغلت بال العلماء المسلمين و غيرهم، والمتمثلة في :

هل التصوف مذهب دخيل في الإسلام ؟

ما هي القواعد والأحكام الدخيلة فيه و من أين أتته ؟

في حالة تأثر المذهب الصوفي برؤى أجنبية عنه، فهل يمكن القول بوجود هذه الرؤى في الزوايا ؟

يرى لويس ماسنيون بأن علماء الإسلاميات الأوائل قد حاروا في تعليل "الخلاف الكبير في العقيدة بين مذهب الوحدة الحالي و مذهب أهل السنة الصحيح، فذهبوا إلى أنّ التصوف مذهب دخيل في الإسلام مأخوذ إمّا من رهبانية الشام (وهو رأي مركس Merx) و إمّا من أفلاطونية اليونان الجديدة، و إمّا من زرادشتية الفرس، و إمّا من فيدا الهنود (وهو رأي جونس Jones). و قد بيّن نيكولسن Nicholson أنّ إطلاق الحكم بأنّ التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول، فالحق أنّنا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أنّ الأنظار التي اختصّ بها متصوفة المسلمين نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث و تقرئهما وَ تأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وما حلّ بالأفراد من نوازل.

على أنّه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة، فمما لا يخلو من فائدة أنّ نتعرف على المحسنات الأجنبية التي أدخلت عليه و نمت في كنفه. و هكذا

استطاع الباحثون المحدثون أن يلمسوا في التصوف الإسلامي كثيرا من خصائص العكوف عند رهبان النصارى... و طائفة كبيرة من المصطلحات الفلسفية اليونانية المنقولة عن السريانية، و لم تدرس بعد شواهد المحسنات الإيرانية التي ساقها بلوشيه Blochet. أمّا من حيث الخصائص السنسكريتية في التصوف الإسلامي (وهو قول هورتن Horten)، فقد ذهب (بعض العلماء) إلى أن هناك تشابها بين "الأبنشاد" أو "اليوغاسوترا" و أنظار المتصوفة الأول، و لم يقم ما ساقاه من الأدلة إلاّ قليلا، وَ نجد من ناحية أخرى أن بحث المراحل التي أدت إلى إدخال "الذكر" في طرق الصوفية المحدثين تدلنا على تسرب بعض طرائق الهنود إلى التصوف الإسلامي "[1].

و إذا كانت الصلة بين الصوفي و ربّه في الإسلام إنّما هي صلة قائمة على المحبة لا على مجرد الطاعة لأوامره و الخوف من نواهيه، فإنّ المحبّ يعطي من عنده فوق ما يؤمر به و لا ينتظر الطلب ليستجيب إليه. إنّ الإسلام ينكر من جميع المذاهب المعروفة مذهبين منتشرين في الصوفية هما مذهب الحلول و المذهب القائل بوحدة الوجود.

فلا يقرّ الإسلام مذهبا يقول بحلول الله في جس إنسان، و لا يقرّ مذهب القائلين بفناء الذات الإنسانية في الذات الإلاهية. يقول العقاد بأنّ المتصوفة والمنتسبين إلى الطرق الصوفية من المتأخرين ظلوا " يبرأون من القول بالحلول و وحدة الوجود و إسقاط التكليف و يعتزلون من يقول بها على وجوهها المنقولة من الديانات الوثنية... و هذا الفارق الفاصل بين الصوفية الإسلامية و الصوفية الدخيلة هو الذي أوهم فريقا من المستشرقين أنّ التصوف كلّه مستعار من الهند و فارس أو

1 دائرة المعارف الإسلامية، ج5، ص 274/273.

من الأفلاطونية الحديثة، و هو قول يصدق على مذهب الحلول و مذهب وحدة الوجود و لكنه لا يصدق على مذاهب الصوفية التي تقوم على الحب الإلاهي والكشف عن الحقائق من وراء الظواهر. فهذه الصوفية أصيلة في الإسلام يتعلّمها المسلم من كتابه ويَصل إليها ولو لم يتصل قط بفلسفة البراهمة أو بفلسفة أفلوطين"[1].

ثمّ ينتقل العقاد إلى دحض مزاعم مركس Merx و جونس Jones و بلوشيه Blochet و غيرهم ممن ادّعوا أنّ مذهب التصوف دخيل في الإسلام. يقول في هذا الصدد :" إنّ أناسا من ابناء العصر الحاضر يحسبون أنّ الصوفية بقضها و قضيضها تراث قديم مهجور، و لكنهم يعلمون كلّ يوم –و سيعلمون غدا– أنّ الإنسان لن يستغني في حياته يوما واحدا عن الصوفية في ناحية من نواحيها؛ لأن رياضة النفس ضرورة لازمة كرياضة الجسد... والمجتمع الإسلامي أحق المجتمعات بالتصوف و أولاه بحرية الضمير التي يسمو إليها الإنسان كلّما آثر لنفسه الإيمان بالله على الحب والمعرفة و لم يقتنع بحظ الثواب والعقاب، لأنّ الإسلام يأبى له الرهبانية التي اعتصم بها أناس في العصر القديم، ولا يرضى له بعض المذاهب الوجودية في عصره الحاضر "[2].

أمّا ما يميّز عمل كثير من الزوايا و نشاطها، فيندرج جلّه تحت أوامر الشريعة و قواعدها و سننها، ولا يخوضون في مسألة الحلول، ولا القول بوحدة الوجود، ولا يذهبون –كما فعل بعضهم– إلى أنّ الكون كلّه بسمائه و أرضه و مخلوقاته العلوية والسفلية هو الخالق الباري. إنّ هل الزاوية في عامتهم يفضلون

1 الإسلاميات : العقاد، م5، ص 396.

2 المرجع نفسه، ص 400-401.

وحدة الفضائل الإلاهية وَ وحدة التوحيد و يوفقون بين الأمور الدنيوية والأمور الأخروية بمذهب جميل معتدل.

6- أصل كلمة صوفي :

يرى كثير من الباحثين أن مصطلح "الصوفي" يطلق على العامل بمذهب الصوفية[1]. وإذا كانت الآراء متضاربة والتصورات مختلفة حول نشأة التصوف، فقد شهدت هذه الكلمة هي الأخرى تعريفات متنوعة واستخلاصات متباينة حتى أن عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة تسع وعشرين وأربعمائة هجرية استطاع أن يضمن تأليفه ألف قول في تعريف هذا اللفظ الذي لم يكتب له الظهور إلا في منتصف القرن الثاني الهجري. ومعنى هذا أنّ لفظ التصوف و فنه والمتصوفة آنذاك، لم يعرفوا بهذا الاسم الشائع إلاّ في التاريخ نفسه[2]. فلفظة الصوفي اشتهرت في بداية القرن الثالث الهجري، و أول من سمي ببغداد بهذا الاسم عبدك الصوفي، وهو من كبار المشايخ و قدمائهم. و قد بين ابن تيمية بأنّ منشأ التصوف كان من البصرة لأنّه كان فيه من يسلك طريق العبادة والزهد كما كان في الكوفة من يسلك طريق الفقه والعلم.

والصوفي هو الذي يسعى إلى تصفية قلبه من غير الله، والصعود بالروح إلى عالم التقديس بإخلاص العبودية للخالق والتجرد عما سواه[3]. وإذا كان المتعبد بهذا المذهب لا يزال غير معروف بهذا الاسم، فقد كانت تطلق عليه -قبل إطلاق مصطلح الصوفي عليه- صفات مأخوذة من أفعال أصحابها كالزهد والزهاد والعبادة

---

1 دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي، بيروت، دار الفكر، م5، ص 585.

2 المبتدى في التعرف على التصوف السني :مصطفى السنوسي، البويرة، مؤسسة الاتحاد للنشر والإشهار، ص 16.

3 دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي، م5، ص 585.

والعباد والتحنث والمتحنثين لأنّ المسلمين في عهد الرسول (صلعم) كانوا يعتزون بصحبته عليه الصلاة والسلام، والصحبة لها حرمتها و جلالها الصرمديان... فلما نسبوا إلى الصحبة التي هي أجل الأحوال، استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال. كما أنّ هذا الاسم لم يظهر في عهد الخلفاء الراشدين لأنّ المسلمين قاطبة كان ليلهم في –ذلك العهد– تهجدا و تضرعا و بكاء و نهارهم جهادا لإعلاء كلمة الله و كذا على العيال و اكتسابا للحلال ومصارعة للخيرات و أذواقا في المناجاة الباطنية و لذات في العبادات الظاهرية، فلم يكن هناك ما يميّز بينهم في تأدية ما أوجبه الله عليهم[1].

إنّ أول خطوة يقوم بها المتصوف لإدراك منهجه هي أن يسلك طريق الله وأن تكون سيرته أحسن السير و سبيله أصوب السبل و أخلاقه أزكى الأخلاق حتى تكون جميع حركاته وَسكناته في ظاهره وباطنه مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض، نور يستضاء به (ومعنى هذا) تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى و استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في الله...[2]. وهي النظرية التي وضعها المتصوفة في المعرفة على ما بيَّنه أبوحامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين حين قال :" اِعلم أن التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلاّ بعد معرفته. وإذا كانت التوبة واجبة، كان ما لا يتوصل إليها إلاّ به واجبا. فمعرفة الذنوب إذا واجبة، والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله

1 المبتدى في التعرف على التصوف السني :مصطفى السنوسي، ص 17/16.
2 غيث المواهب العالية في شرح الحكم العطائية: ابن عباد النفزي الرندي، ج1، ص 2.1/11

تعالى في ترك أو فعل ...[1].

ولا شكّ أنّ الصوفي يقف على المعرفة من طريقين :

- طريق الإلهام الذي يختص به الأولياء.
- طريق الوحي الذي يختص به الأنبياء.

و أهل التصوف يجنحون إلى العلوم الإلهامية بدلا من العلوم التعليمية و يعدونها المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية التي يستحيل معها إمكان الخطأ. أمّا مصدر العلوم التعليمية الذي هو العقل، فلا يعتد به الصوفي لأنّ العقل لا يدور إلاّ في فلك المادة؛ إنّه يتسامى إلى السماء فيبحث بأقماره و سفنه و صواريخه بين أرجائها الشاسعة و مساحاتها الرحبة، و يغوص في أعماق البحار فيظهر مكنوناتها و يكشف عن أسرارها و يتعمق في طبقات الأرض، فيخرج من أثقالها و يزيل الغموض عن معمياتها؛ إنّه مبدع الصناعة... ولا شأن له بالغيب الإلاهي، لا شأن له بالمساتير، مساتير الملأ الأعلى، ولا شأن له بكشف المحجوب الروحي، ولا شأن له بمعارج القدس ولا بمنازل الأرواح. لقد أخفق العقل في إيجاد مقياس عقلي يقيس به الصحة والخطأ في عالم الروح و عجز عن اختراع فيصل يفصل بين الحق والباطل في مجال الغيب.. وَإخفاق العقل في عالم التصوف قضية اعترف بها العلماء كلهم[2].

ومن أجل هذا عمد المريد في مجاهدته و عبادته إلى أن ينشئ حالة نفسية بواسطة الطاعة والإخلاص، ولابد له من أن يرتقي في هذه الأطوار النفسية إلى المقامات أو المنازل. والمقام هو ما يتحقق به المزيد من الصفقات المكتسبة

1 إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، دمشق، مكتبة عبد الوكيل الدوري، عالم الكتب، ج4، ص 14.
2 غيث المواهب العالية في شرح الحكم العطائية: ابن عبد الله العباد النفزي الرندي، ج1، ص 7 / 8.

بالرياضة والعبادة كمقام الخوف من الله الذي يحصل بترك الكبائر والصغائر والمكروهات و شبه المكروهات والتوسع في الحلال إلى أن ينتهي إلى ترك كل ما يشغل عن الله. ولا يتأتى هذا كله إلا إذا استطاع المريد أن يصفي باطنه من كدرات النفس، أي عيوبها و صفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وطلب العلو و حب الثناء والتكبر والرياء والغضب والطمع والبخل و تعظيم الأغنياء واستهانة الفقراء؛ لأنّ التصوف يضطلع على العيب والعلاج... فيتوصل إلى قطع العقوبات والتنزه عن أخلاقها المذمومة و صفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك إلى تحلية القلب عن غير الله تعالى و تحليته بذكره سبحانه وتعالى[1].

أمّا معظم أهل الزاوية فيعتقدون اعتقادا راسخا بأنّهم ينتمون إلى مذهب المتصوفة محاولين انتهاج نهج الأوائل في العبادات,والتحلي بالأخلاق الحسنة عن طريق تصفية القلب من الأمور المذمومة و ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتدرج بمريدي الزاوية على مكارم الأخلاق و أولها التوبة المقدمة على العبادة، ثم الندم على المخالفات و تركها في الحال و العزم المؤكد على عدم العودة إليها. كما يميل أكثرهم إلى التهجد في الليل عن طريق الأذكار و تلاوة الأوراد، و تكرار الصلوات والتسليمات و ترديد شكر الله و حمده.

و نجد المريد في الزاوية يحاول عصم نفسه عن ارتكاب الذنوب واقتراف

1 المريد في التسلح بعلوم التصوف والفقه والتوحيد: الشيخ مصطفى السنوسي، البويرة، مؤسسة الاتحاد لنشر والإشهار، ص 6/107.10

المعاصي و تجنب المآثم. ولا يتأتى له ذلك إلاّ بالإكثار من الاستغفار والتضرع والدعاء والتسبيح.

7- الولاية وصلتها بالتصوف وَالزاوية:

للفظة "ولي" عدة معاني لغوية. قال الزبيدي :" الولي له معان كثيرة، فمنها المحب وهو ضد العدو، اسم من وَالاَه إذا أحبه. ومنها الصديق، ومنها النصير من وَالاَه إذا نصره. وَ ولي الشيء ولَى عليه وِلاية وَ وَلاَيَةً، أو هي بالفتح... وَ أوليته الأمر فوليه أي وليته إيّاه تولية، والولاء كسماء، الملك وهو اسم من المولى بمعنى المالك[1].

أمّا اصطلاحا فهو ذلك القائم بحقوق الله وحقوق عباده حسب الإمكان، وَ سمي الولي وليا لأنّه تولى خدمة ربه و انهمك فيها معرضا عن نفسه و شهواتها، أو لأنّ الله تولاه ولم يكله شيء سواه. و نستخلص من هذا أن كلمة "ولي" نجدها لغة تدور حول القرب والدنو والتوالي، أما تعريفها من الناحية الصوفية فهي كما جاءت في دائرة معارف القرن العشرين من أن الولي له معنيان: أحدهما :" فعيل" بمعنى "مفعول" وهو من يتولى الله سبحانه أمره. قال الله تعالى (وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين)، فلا يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه رعايته، و الثاني "فعيل" مبالغة من "الفاعل" وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته. فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان. و كلا الوصفين واجب، وحتى يكون الولي وليا يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء و دوام حفظ الله تعالى إياه في السراء

1 تاج العروس : محمد مرتضى الزبيدي، ج10، ص 399/398.

والضراء. ومن شرط الولي أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما...[1].

و يرى الأستاذ مصطفى عبد الرازق أن الوَلاَية عند المتصوفة عبارة عن دوام الاشتغال بالله، والتقرب إليه بطاعته. وإذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شيء ولا يحزن من شيء، لأنّ مقام الولاية والمعرفة منعه من أن يخاف أو يحزن. فالولي عندهم هو الواصل إلى مرتبة العرفان عن الطريق الموحي له إلى تلك المرتبة في رأيهم... والواصل إلى درجة العرفان تتكشف له الحجب و يشهد من علم الله مالا يشهده سواه، و تظهر على يديه الكرامة التي هي أمر خارق للعادة[2].

و يستعمل معظم أهل الزاوية مصطلح "الولي" كما تتردد كذلك لفظة "الولية" كثيرا على ألسنة الناس، و يراد بالولي في قاموس أهل الزاوية كل من بلغ درجة من التقى والزهد؛ لأنّ الولي عرف خلال حياته كيف يواظب على طاعة الله و يخلص في عبادته و يؤمن به إيمانا مطلقا فأحب ما أحب الله، وأبغض ما أبغض الله، و سخط لما يسخط، و رضي بما يرضى، و أمر بما يأمر، و نهى عما ينهى. فأصل الولاية هو المحبة والقرب ولا تتم إلاّ بالتقوى التي تعنى بصالح الأعمال و خالص الدعاء، و اتقاء عذاب الله و عقابه.

و غالبا ما يطلق لفظ الولي على شيخ الزاوية الأول الذي يكون قد توفي حيث

1 دائرة معارف القرن العشرين، ج10، ص 812.

2 دائرة المعارف الإسلامية، مقال الولاية و صلتها بالتصوف و كرامات الأولياء: الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا، ج5، ص 285.

تشيّد حول قبره قبة تصبح على مرّ السنين مقاما للزيارات مع تخليد أعمال هذا الولي الصالح، و ذكر مناقبه و مآثره. و قد بالغوا أحيانا في طريقة زيارة هذه الأضرحة حتى أصبحت تشكل أحيانا مصدر عبادة للجهال و غير العارفين، ذلك أنّنا أسلفنا بأنّ مصدر نشوء الزاوية هو النتيجة التي أفرزتها الاختلافات المتعددة بين مختلف الطرق والفرق الدينية، ومن هنا ظهر شكل من الانحراف الروحي تمثل في عبادة الأولياء و تقديس الأضرحة إلى جانب إحياء بعض التقاليد القديمة، و قد استطاع شيوخ بعض الزوايا أن يؤثروا في مريديهم بجعلهم يحترمون أضرحة أوليائهم، مما جعل المستشرق درمنغم Dermenhem :" إنّ الولي المسلم استطاع –في حالات معينة– أن يحل محل قديس مسيحي، أو عابد سلفي، أو إلاه وثني، أو موجه روحي، أو جني ماهر"[1].

والجدير بالإشارة أنّ هؤلاء الأولياء الذين تقام لهم المأدبات والحفلات (الوعدات) هم في حقيقة الأمر أولياء محليون، يعرفون في مناطق محددة. و غالبا ما تحتضن الزاوية هذا الولي فتصبح كل قبة بنيت من أجل هذا الرجل الصالح مركزا للحج، والتلاقي، كما يصبح التابوت محل تقديس.

وإذا كانت السلطة على الزاوية لا تزال في قبضة رجل ينعم بالحياة، فذلك هو "الشيخ" وهو المسيطر المطلق على الزاوية، والمحقق للهدف الأول من نشاطاتها، وهو نشر تعاليم الزاوية التي يسيرها، والعمل على إنشاء زوايا متعددة

1 E. Dermenghem : Le culte des saints dans l'islam Maghrébin : Gallimard ; 1954 ; p. 46.

داخل و خارج الوطن في جميع الأماكن التي يحل بها. و هو ما فعله مؤسس الطريقة السنوسية الشيخ محمد بن سي علي بن سنوسي الذي ولد بِهَلِيل بالقرب من مستغانم، و قد استطاع هذا الرجل في ظرف زمني قصير أن ينشئ زوايا عديدة في الأسكندرية، و قابس و السودان و غيرها. و تمكن "المُقدمون" أن يجلبوا بالآلاف عرب ليبيا، و توارق الصحراء الوسطى، و سود السودان، إلخ... إلى تعاليمهم. وفي بضع سنين اكتسب الشيخ بن سنوسي مكانة مرموقة ومنزلة عالية في الأوساط الشعبية والتي استطاع أن يحافظ عليها و يصونها بطرق اختلطت فيها الكرامة والحيلة و الذكاء.

8- دور الزاوية في تحقيق بعض الواجبات الدينية :

إنّ شيوخ الزوايا المختلفة التي عرفت انبساطا واسعا في الأوساط الشعبية، و كوّنت مناهج ثقافية مهمة في العديد من النواحي، وفي الكثير من البلدان، وحتى تسربها في بعض الأوطان والذين عرفوا بصلاحهم واشتهروا بتقاتهم، و عبادتهم، و تجلدهم، و فنائهم في حب الله، و نشر تعاليمه، و بسط تربية قرآنه المعتمدة على الأخلاق الحميدة، و السلوكات المثالية والمتوجهة خصوصا للمريدين وطالبي العلم. تكون الدراسة بشأنهم أو بشأن الجمعيات الدينية التي أنشأوها ناقصة إذا لم نعالج المساهمات الجبارة لبعض أكبر الشيوخ الذين ميزوا المرحل التاريخية في عهدهم والتي تمحورت في مناطق حساسة تجدّر فيها الإسلام. و يتعلق الأمر هنا بأوجه مشهورة كانت رغبتها الوحيدة هي توحيد المسلمين، ومن ثمّ برز وجهان من هذه النخبة، وهما مشهوران : سيدي أحمد بن سالم المزداد في 1150 للهجرة الموافق

لـ 1737 للميلاد بحي التجانيين بعين مهدي بالقرب من مدينة الأغواط، و كذا الشيخ السنوسي، و اسمه الحقيقي ابن علي سنوسي الخطابي الحسني الإدريسي المولود في 1202 للهجرة الموافق لـ 1787 بِهليلي في قرية الطرش بنواحي مستغانم؛ و هما عالمان جزائريان برزا بمعارفهما و تجاربهما و بمختلف أسفارهما، و كذا بالتربية و محامد الأخلاق التي كانا يدرسانها. فالشيخان التيجاني وَالسنوسي كانا ملهميْن بفكرة سامية، و هي تمتين و إعادة توطيد أواصر المسلمين. و كان عليهما أن يجدا الوسيلة لجلب أغلب الزوايا إليهم، والتي يتقاسمان مناصريها من مريدين و متعاطفين و محبين.

و بمرور الزمن، لوحظ بأنّ مذهبي الزاويتين يختلفان الواحد عن الآخر، فالزاوية التيجانية كانت متفتحة بكثير على العالم الخارجي، و هذا من الأسباب التي جعلت انخراط المريدين إليها يتكاثر لاسيما في القارة الإفريقية وفي السنغال بالخصوص وذلك إلى يومنا هذا.

فالشيخ التيجاني كان صوفيا ومُتزهدا كبيرا حتى قبل أن ينشئ زاويته. و قد انخرط في مذهب "القادرية" و "الخلواتية"، وَ "الطيبية"، و مات بفاس سنة 1815 للميلاد تاركا إدارة زاويته إلى المقدم سيد الحاج بن الحاج عيسى، وهو من يامبو Yambo من الجزيرة العربية، وقد كان شيخا على زاوية "تماسين" بواد "غير" بجنوب بسكرة.

وَ انطلاقا من سنة 1851، أصبحت هذه الزاوية تمثل قوة واقعية، منتشرة في

مدينة فاس التي احتضنتها وَشرعت تفرض نفسها من هناك كمركز مسير لزوايا التجانية.

وفي هذه الفترة، أصبحت زوايا التيجانية تنظم قوافل محصونة تمر من "تماسين" و "عين مهدي" لتصل إلى "شنقيتي" ضواحي "أدرار"، و "طومبوكتو" و"سقو"، و "فوتا جالون"، و كان يتتبع هذه القوافل ازدهار اقتصادي، وتبادل تجاري هام جمع بين مختلف المناطق بالقارة الإفريقية شمالها وَ وسطها[1].

وفي السودان، كان الحاج عمر و أحمدو شيخو من التيجانية المعتمدة على المدرسة المغربية، و نتيجة لذلك انظم إليها العديد من العرب. وفي المغرب انظم إلى هذا المذهب الكثير من قبائل البرانس و التسول. وتعرف التيجانية توسعا باهرا إلى يومنا هذا عبر العالم، و يقال بأنّ الإحصائيات بالولايات المتحدة الأمريكية تتحدث عن حوالي ثمانين مليونا من المسلمين منخرطين و تابعين للزاوية التيجانية.

أمّا زاوية السنوسي فهي منكمشة نوعا ما على نفسها، و مبتعدة عن المقدمات والتطورات لا سيما الغربية منها بصفة مركزة، و بمقاومة متعصبة. وعلى العكس من ذلك كانت التيجانية تتميز عنها بقواعد لينة سهلة العبادة وإقامة الشعائر والحرمان الذي كان موجودا في نظام الصوفية والذي كان في غالب الأحيان غامضا و صعبا.

فزاوية الشيخ السنوسي منحدرة من سلالة من النبلاء وأمراء الأدارسة، والتي ظهرت في عهد العثمانيين. وقد عاشت كذلك مراحل مرعبة أثناء سلب و نهب الجزائر من طرف الاستعمار الفرنسي، وبقيت متحفظة عن التعامل بجميع صوره مع

1 Algérie : Terre de foi et de Culture, p. 100.

الأوروبيين. وَ كانت تتعامل بنوع من الصرامة والتشدد، بل حطت رحالها في مصاف المعارضة ضد الأوروبيين. لكن تنظيم الزاوية السنوسية كان مفتوحا لجميع المسلمين الذين يمكنهم أن ينخرطوا بدون شرط التخلي عن جمعياتهم الأصلية التي ينتمون إليها. والشيخ السنوسي كان يدرس، و يلقي فتاواه منذ سنة 1829 بعد عودته من الحجاز، وكان يتحدث عن جامعة عربية و جامعة إسلامية متحضرة، وكان ذلك في كل من مصر و ليبيا و تونس. وفي سنة 1830 كان يدرس في بوسعادة أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، ثمّ عاد إلى مصر، و أثناء إقامته تظاهر ضد السلطان كونستونتينوبل Constantinople ممّا جعله ينفى من البلاد، ثمّ عاد إلى مكة و حاول بقوة أن يحصل على خلافة شيخ زاوية القادرية، إلاّ أنّه لم يفلح و طرد مرة أخرى من الحجاز من طرف الأتراك، ثمّ رحل إلى إفريقيا الوسطى حين وجد حقلا فارغا لبسط دعواه. و قد كتب الجنرال ماينير Maynier مايلي :" لقد نصب زوايا في جميع البلدان المتواجدة بين الأسكندرية، و قابس و السودان. وقد انضوى المقدمون بالآلاف، عرب من ليبيا، توارق الصحراء الوسطى، زنوج من السودان..إلخ في بضع سنوات اكتسب سلطة معتبرة عرف كيف يحافظ عليها بطرق صانع المعجزات "[1].

وَ ساهم الشيخ السنوسي بفعاليته في مقاومة الاحتلال الفرنسي سواء بطبعه الحواري، أو بخصوصياته كرجل حرب. إلاّ أن انهزامه أمام الجيش الفرنسي سنة

1 المرجع السابق، ص 100.

1852م جعل السنوسية تنتقل إلى ليبيا و تستقر حتى تمكن أحد أحفاد الشيخ الكبير من أن يترقى على عرش ملكي.

وهناك الزاوية الدرقاوية التي أسست من طرف مولاي العربي الدرقاوي بنواحي مدينة فاس حوالي 1823. ويقول المؤرخون بأنّ اسمها جاء من اسم مؤسسها أبو درق، و يعني الرجل صاحب درع الأمان. والشيخ مولاي العربي من الشرفاء الأدارسة، و ينتمي إلى قبيلة ابن زوال، وَالقادرية ما هو إلاّ مذهب مجدد من الشاذلية، هدفها هو جلب المسلمين إلى مبدأ الصوفية الخالصة مع العمل على إبعادهم من العالم الدنيوي، وهي توحي إلى تابعيها بالابتعاد عن السلطة، و أن لا تحاربها، أو أن تحارب السلطة في الوقت الذي تريد فيه هذه السلطة أن تفرض نفسها بالقوة.

و بعد وفاة الشيخ المؤسس للزاوية الدرقاوية، تأسست العديد من الزوايا سمت نفسها بالدرقاوية، وأصبح شيوخها يتميزون عن بعضهم البعض، و حصل كل واحد منهم على استقلالية زاويته بمجرد ما إن يتحصل على نفوذ و وجاهة شخصية.

وَهذه الزوايا الدرقاوية توجد في الجزائر و بكثرة في غرب البلاد، و تأثيرها نلاحظه عند نبلاء "الهبرية" في مناطق معسكر، و سعيدة، و فرندة، وَزمورة، و جبل الناضور، و مستغانم و تلمسان التي عرفت في زمن ما عددا لا يستهان به من الزوايا.

والدرقاويون يوصفون من طرف المحتل الفرنسي بأنهم مقاومون أشداء، و متعصبون للأنظمة، فرفضهم للاعتداء، والاستغلال جعل تاريخهم يشهد على تورطهم في الكثير من الثورات سواء في الجزائر ضد الأتراك، أو في المغرب ضد السلاطين. فقد كانوا دائما يقدمون كمتعصبين متحضرين لمعارضة كل السلطات المتواجدة.

وفي سنة 1954، وهي سنة بداية التحرر الوطني، كانت الزوايا الدرقاوية محروسة بشدة من الإدارة الاستعمارية التي كانت دائما تأمر بحراسة و مراقبة تحركات شيوخ ومناضلي الزوايا الدرقاوية والذين لهم علاقات و روابط جدّ قريبة مع زوايا المغرب.

و قد إنبثقت من الطريقة الشاذلية زوايا متفرقة أخرى، و هما "الكتانية" و"العلوية". فالأولى أنشئت في المغرب بمدينة فاس في أواسط القرن التاسع عشر من طرف سيدي محمد بن عبد القادر الكتاني. و لم تأخذ اهتماما شعبيا إلاّ في أواخر نفس القرن. أمّا الثانية، فقد أنشئت في الجزائر بمدينة مستغانم في 1920 من طرف الشيخ ابن عليوة أحمد ولد المصطفى، والعلوية تعتقد التوجه نحو كل ما هو عصري و متحضر.

ففي انطلاقها كانت العلوية مفتوحة على الديانات الأخرى الموحدة في دعواها، و كانت تتبع تبشيراتها في كل من أوروبا و انجلترا وفي أمريكا أين فتحت

بعض نواة الزاوية الدرقاوية، و دعت الأمريكيين إلى الدخول في الإسلام. و قد عرفت الدرقاوية هذا الازدهار في عهد الشيخ بن عليوة، هذا العلامة الذي تقوّى، و تديَّنَ، و وَرَعَ، و أثرى نفسه بالمعارف الدينية والتاريخية والفلسفية. وهي الأسباب التي زادت في حماسة المنخرطين إلى الزاوية العلوية والتي عرفت نجاحا كبيرا في الخارج. إلاّ أنّه بعد وفاة الشيخ، ورثه ابنه المتبنى الذي تقلد زمام الزاوية إلاّ أنّ نهجها أخذ طريقة أخرى حيث أنّ الشيخ بن تونس عدة الذي ربّاه الشيخ بن عليوة تأثر كثيرا بتنظيم العلماء المسلمين[1].

1 المرجع السابق، ص 102.

2- الوظيفة الأخلاقية

1- الانتساب الروحي :

من المبادئ الأخلاقية السامية التي يحافظ عليها الشيخ وَ يعض عليها المريد بالنواجد، ما يسمى عند أهل الزوايا بالانتساب الروحي. وَلا يحصل على هذا الانتساب إلا من غلبت روحانيته على بشريتَه، ونورُه على ظلمته فأصبح من الخواص العارفين السائرين، يجهد نفسه – وإذا رُدَّ المريدُ إلى المقام البقاء، وسلك تلك المسالك من جذب، وَفناء، وَتخلية وتحلية، أمره الشيخ بتذكير الناس، وإرشادهم إلى ربهم، فاستحق أن يكون شيخا مربيا[1].

ولا يتأتى له هذا المقام إلا إذا اتّبع مُثُلَ شيخه وتعاليمه وخضع خضوعا تاما لتوصياته وإرشاداته، فيندرج بهذا الركون إلى السلسلة الذهبية التي يرجعون بها إلى سيد الخلق المصطفى صلى الله عليه وسلم. وإذا كان لابد من ذكر سلسلة للتمثيل فقط، فإنّ العارف بالله الشيخ الحاج بلقاسم بن حراث، تلقى سر الطريقة "عن سيدي محمد الهبري"، وهو عن أبيه سيدي الحاج محمد الهبري، وهو عن سيدي محمد بن قدور الواكلي، عن سيدي مولاي العربي الدرقاوي، عن سيدي علي الجمل، عن سيدي العربي بن عبد الله، عن سيدي أحمد بن عبد الله، عن سيدي قاسم الخصاصي، عن سيدي محمد بن عبد الله، عن سيدي عبد الرحمان الفاسي، عن سيدي يوسف الفاسي، عن سيدي عبد الرحمان المجدوب، عن سيدي على الدوار، عن سيدي إبراهيم الفحام، عن سيدي أحمد زروق، عن سيدي أحمد الحضرامي،

1 إيقاظ الصمم في شرح الحكم لابن عطاء أسكندري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 351.

عن سيدي يحيى القادري، عن سيدي علي وفى، عن سيدي محمد وفى، عن سيدي داود الباخلي، عن سيدي أحمد بن عطاء الله، عن سيدي أبي العباس الموسي، عن سيدي أبي الحسن الشاذلي، عن سيدي عبد السلام بن مشيش. وَأخد القطب الشاذلي أيضا عن سيدي محمد بن حرازم، عن سيدي محمد صالح، عن سيدي أبي مدين الغوث، عن مولانا عبد القادر الجلالي[1]، عن سيدي أبي سعيد المبارك، عن سيدي أبي الحسن الهكاري، عن سيدي الطرطوسي، عن سيدي الشبلي، عن الإمام الجنيد، عن سيدي السري السقطي، عن سيدي معروف الكراخي، عن سيدي داود الطائي، عن سيدي حبيب العجمي، عن سيدي الحسن البصري، عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، عن سيدي الأولين والآخرين، عن سيدنا جبرائيل الأمين، عن من جلت عظمته، وتقدست أسماءه، وصفاته رب العالمين "[2].

إن الأوامر التي يتلقاها شيوخ الزوايا فيستوجب عليهم الحفاظ عليها، ونشرها، يستلهمونها غالبا من أحد الخلفاء الراشدين أبي بكر أو عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، أو عن طريق وحي إلهي نفده سيدي الخضر، إذ هناك اعتقاد متوارث بين بعض شيوخ الزوايا مفاده أن الخضر شرب من عين الحياة فصح له البقاء الدائم والخلود، فانقسمت شخصيته شطرين، إلياس فوق الأرض والخضر في أعماق البحار، وفي يوم من كل سنة تلتقي الشخصيتان للمذاكرة فيصبح الخضر وسيطا بين

---

1 وَ الصواب الجيلاني.

2 وصية الداكرين في نبذ المنتقدين :الحاج بلقاسم بالحراث، ديوان المطبوعات الجامعية،وهران، ص07.

الخالق ومَخلوقاته ويَمنح لهم سلطة مطلقة في الإتيان بالمعجزات و الكرامات[1].

2- توبة المريد :

ومن أخلاق أهل الزوايا أنهم لا ينظرون إلى صغر الخطيئة بل ينظرون إلى عظمة الله تعالى التي تبعد العاصي عن "معصيته"، وهم يقولون في التربية الأخلاقية لتخويف المريدين من أثر المعاصي، بأنه لا يجب الاستهانة بالمعاصي لأن معصية واحدة فقط أخرجت أبانا آدم عليه السلام من الجنة، وهم يقولون كذلك بأن "التوبة" النصوح لا تُبْقِ على صاحبها أثرا من المعصية سرا و لا جهرا، ومن كانت توبته نصوحا فإنه لا يبالي كيف أمسى أو كيف أصبح. والتوبة هنا هي التوبة الخالصة، وهي المشار إليها في الآية الكريمة (يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّر عَنْكُمْ سَيِّـئَاتِكُمْ، وَيُدْخِلْكُم جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتَهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يخْزِيَ اللهُ النَّبِيَ وَالذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهم وَ بِأَيْمَانِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا، وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير)[2].

فالتوبة عند أهل الزاوية هي التي لا يَعقبها نقص، فيجب أن تكون مبنية على قناعة واستقرار و اطمئنان، دون تردد فيها.

3- دور التسبيح :

إنّ من شيم الاختلاف عند أهل الزاوية التسبيح بالله الواحد القهار، وأصل صيغ التسبيح هو كلمة "سبحان الله" التي نُحتَت منها السبحة المستعملة عند المسلمين.

---

1 Contribution à l'étude des confreries religieuses musilmans P.J Audré – Edition la maison des livres Alger 1956 page 59.

2 سورة التحريم، الآية 8.

فقد اعتاد عامة الناس من المتدينين الأوائل والأولياء المتصوفة أن يستعملوا التسبيح عند ذكر الله تعالى و تسبيحهم له. و من الملاحظ أنّ هذا العمل لم يسلم من نقد الناقدين.

و لقد ذكر "سيدي أحمد الهبري أنّ الشيخ بن حمدون قال في حاشية فيها على شرح ميارته على منظومة الإمام بن عاشور في كتاب التصوف أنّ تنبيهات الأول والثاني والثالث للسبحة أصل في الشرع...[1].

و يضيف من جهة أخرى أنّ الدّلمي روى في مسند الفردوس أنّ النبي (صلعم) قال :" نِعْمَ الذكر السبحة". و روى بن أبي شيبة عن عمر رضي الله عنهما أنّه رأى النبي (صلعم) يعقد السبحة بيده الشريفة...[2]

و يستطرد قائلا أنّ المحشي ذكر أنّ جمعا من الصحابة منهم السيّدة عائشة و أبو هريرة و أبو الدرداء رضي الله عنهم كانت لهم السبحة و كانت لأبي هريرة سبحة بألف عقدة لا ينام حتى يذكر و يسبّح الله بها. و كذلك جمع من الأولياء كالجنيد و الجيلاني و معروف الكراخي و غيرهم...[3]

و يرى الشيخ الهبري من جانب آخر أنّ أصل صيغ التسبيح هو كلمة (سبحان الله) التي أتيحت منها السبحة، و وقع التصريف في صيغتها بالإدمار نحو (سبحانك، و سبحانه). وَ الـموصول نحو قوله تعالى (سُبْحَانَ الذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ

---

1 اللمحة البدرية في التعريف بالطريقة الهبرية : الهبري سيدي أحمد، منشورات المجتمع، 2001، ط1، ص 64.

2 المرجع نفسه، ص 64.

3 المرجع نفسه، ص 64.

كُلَّهَـــا)[1]. و قوله تعالى (سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)[2]. و يخبرنا كذلك أنّ جلال الدين السيوطي قد كتب رسالة سمّاها (المنحة في اتّخاذ السبحة)[3].

وَيرى أهل الزاوية بأنه من ورد لله بعد كل صلاة ثلاثة وثلاثين كلمة (سبح لله)، وَ (حمد الله) ثلاثا وثلاثين، وَ (كبر) ثلاثا وثلاثين، ثم قال عند تمام المائة (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وَ له الحمد، وهو على كل شيء قدير)، غفرت خطايات مهما كان عددها.

4- التربية الأخلاقية :

وَ أهل الزاوية يحرصون على ملازمة الأخلاق الفاضلة وَالتخلي عن الرذائل النفسانية والتحلي بالفضائل الكاملة التي هي أخلاق الله المشار إليها بقوله (صلعم)

" تخلقوا بأخلاق الله "، وَالمراد بها هنا ما يوافقها كالعفو والحكمة وَالكرم، والحلم مع امتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهرا و باطنا، وهو ما يعبر عنه عموما" بالتقوى".

يقول الإمام الغزالي عن أخلاق الصوفية :" الصوفية راضوا أنفسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق، وَ كم من نفس تجيب إلى الأعمال وَلا تجيب إلى الأخلاق فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وَجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية

1 سورة الآية .
2 سورة البقرة، الآية .
3 اللمحة البدرية في التعريف بالطريقة الهبرية، ص 65/64.

أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها".

فمن هذا القول يتضح بأن للصوفية وَأهل الزوايا منها مسلكا أخلاقيا اجتماعيا وَ نفسيا، و ممّا جاء به الغزالي في كتاب (إحياء علوم الدين) حَوْل أخلاق الصوفية هو كلام جامع ومقنع، ويبعث إلى الإنصاف بأخلاقهم والتي ما هي في آخر المطاف إلا انعكاس لأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم في أسمى معانيها.

فلأهل الزاوية أخلاق لها وزن راق وَمعيار قويم، لهذه الأسباب نجدهم يحرصون على الاتّصاف بها، خصوصا في مجالات معاملتهم وتعاملهم مع الآخرين، كما أننا نجد عندهم كل مكارم الآداب وَأطيبها، وَ أول ما يبادر إليه أهل الزاوية في علاقتهم واحتكاكهم بالناس هو غرس الخلال الطيبة وتلقينها للمريدين على حقب متفاوتة المستويات، ومتكيفة مع جميع الأزمنة والعصور.

و لكن أهل الزاوية فوق هذا كله لا يرضون بتعاليم زاوية ما، و لا بمبادئ شيخ زاوية ما إلاّ إذا تماشت هذه التعاليم والمبادئ مع سيرتهم وأخلاقهم، ولذلك وجدنا أن المريدين قد يفضلون زاوية دون أخرى، أو ينتقلون من زاوية إلى أخرى كلما وجدوا الصفات الأخلاقية والملكات الحميدة التي ينزعون إليها. فقد روى المستشرق André Adam أنّ حي بن مسيك بنواحي الدار البيضاء (المغرب الأقصى) كانت به في سنة 1949 زاويتان أساسيتان، الأولى تابعة للطريقة التيجانية، وكان على رأسها "مقدم" من قبيلة متوقة البربرية، والثانية تابعة للطريقة الدرقاوية وهي

أقدمهما. و كانت قائمة بمحجرة "الرحامنة" وكان يشرف عليها مقدم من قبيلة "الصراغنة" البربرية كذلك.

لقد كانت الزاوية الدرقاوية تضم مدرسة قرآنية و لعبت دورا هاما في استقطاب النازحين من البادية المغربية إلى مدينة الدار البيضاء، غير أنّ ما يلفت الانتباه هو قلة عدد المريدين المنتسبين لهذه الزوايا. فالتيجانية كانت تضم تسعين مريدا، والدرقاوية ثمانين مريدا، والكتانية ثلاثين مريدا والناصرية عشرة مريدا. إنّ هذا العدد القليل من المريدين يفسر في رأي Adam بالتحولات الاجتماعية الجديدة التي عرفتها منطقة حي بن مسيك من جراء انتقالها من عالم البداوة والحياة الفلاحية البسيطة إلى عالم حضاري متصنع، ممّا أثر على أخلاقيات سكان هذا الحي، و جعلهم يتخلون عن اعتقاداتهم التي كانت مرتبطة بالزوايا ارتباطا كبيرا، و يهتمون أكثر بمشاغل حياتهم المدنية[1].

1 Le Bidonville de Benmsik : André Adam; Anales de l'institut d'études irientales; Ed. la Typo-Litho et Jule Carbonel ; Alger ; 1945 ; p. 152.

و قد يهجرون زاوية ما لما يفعله أهلها من أفعال مذمومة، فقد روي أنّ فرعا من "بني محسن" (منطقة تازة بالمغرب الأقصى) يقوم بأفعال يندى لها الجبين لمخالفتها مع الشرع الإسلامي، وهي أكثر ذميمة مما هو عليه الأعضاء الآخرون المنتمون لقبيلة "الغياطة"، فقد اتهم هذا الفرع بأكل الخنزير و احتقار ما جاء في القرآن الحكيم، و اتّباع بعض العادات الجنسية القريبة من عبادة الأوثان. على أنّ هذه الزاوية لم تثبت صحتها في الواقع الاجتماعي. و لكن ما هو واضح للعيان عند بني محسن، القبيلة البربرية، هو أنّها تبدو و كأنّها لا تزال تعتقد في بعض التقاليد البائدة التي تميّزها عن غيرها من القبائل المجاورة، و أنّها في الوقت نفسه تشبه تقاليد وعادات قبيلة "زكارة" القاطنة بمنطقة "وجدة". و ينسب لهاتين القبيلتين بأنهما سارتا على خطيئة اليهودي"التافي ولد الأنوفي" الذي كان يعيش في عهد سيد أحمد بن يوسف الملياني، وهي خطيئة عمّت المنطقة في منتصف القرن السادس عشر الميلادي؛ إذ أنّ اليهودي المذكور قام بدفن مصحف محرف بالقرب من جثمان سيد أحمد بن يوسف الملياني بعد وفاته. و حين عثر على هذا المصحف المزور بإيعاز من اليهودي، اتّخذه بعض المريدين أساسا و قاعدة لإنشاء طريقة خاصة بهم. و من ثمّ جاءت هذه الطريقة مبنية على أساس كبير من الخطأ والتحريف والتزوير[1]، وهي تعتبر الآن من الأساطير المروية بين أهالي المغرب.

1 Taza et les Riata : L. voinot ; Société de géographie et d'archéologie d'Oran ; Oran ; Mars 1910 ; Tome XL ; p. 70/71.

3- الوظيفة الاجتماعية

1- النظام الداخلي للزاوية :

إن الزاوية المنبثقة عادة من طريقة صوفية معينة تحتوي على مجموعة من الأفراد متحدين فيما بينهم حول طاعة مطلقة نحو مؤسس الزاوية أو حول ورثته الشرعيين. إن هؤلاء المريدين يُطبقون التعاليم الروحية التي يمليها الشيخ ويحترمون القواعد الدينية والاجتماعية والأخلاقية التي يتلقونها.

وَ كل زاوية تشهد نظاما تسلسليا خاصا، فـ "الشيخ" له الحق أن يقطن في موضع غير موضع الزاوية الأم، و هو المعلم المطلق الذي لا يتلقى أوامره إلا من عند الخالق عز وجل.

أمّا "خليفة" الشيخ فهو المساعد له، وهو الذي يعوضه في كل مناسبة يغيب عنها أو يرفض الحضور فيها.

وهناك "النائب" الذي يقوم عادة بوظائف الخليفة ولكن دون أن تكون له صفة هذا الخليفة أو أن يقلد رسميا لهذه المهمة، وغالبا ما يقوم بدور الكاتب والمحاسب في الزاوية، نظرا لمعرفته لأمور الزاوية، ومعاينته لمشاكل مريديها .كما يوجد "المقدم" وَ هو عون الشيخ في كل مكان يتجمع فيه مريدون، وهو الذي يتحكم في تسيير الشؤون الإدارية والمالية للزاوية، وفي تطبيق أوامر الشيخ، وتلقين تعاليمه، وقد يعوض "المقدم" بنائب أو نواب.

وَأخيرا هناك "الشاوش" وَ "الرقاب" وهم الأعوان المكلفون بالمهمات، وسفراء المقدم، وتتمثل مهامهم العادية في القيام بتنظيف الزاوية وَ ترميمها وَالحفاظ على

مصالحها، وَصيانة أثاثها وَمنشآتها، والاعتناء وَالحرص على أملاكها، وَاستقبال الضيوف، وَإطعامهم، وَالسهر على حسن إقامتهم، وَ مساعدتهم .

وَتحت هذه الطبقة يوجد ما يُسمى "بالإخوان" وهو المصطلح المعطى للمريدين في شمال إفريقيا، وَ هم "الدراويش" في المشرق، و "الفقرة" عند القادرية و"الأصحاب" عند التيجانية.

أمّا أعضاء القبائل التي توجد بها الزاوية و الذين يخضعون لسلطة الشيخ، فَهُم "الخدام" وَأخيرا "المريد"، وهو المتطلع إلى تعاليم الزاوية وَالراغب فيها، وَالآمل في رِضى شيخها[1].

2- أملاك الزاوية :

أما فيما يخص أملاك الزاوية، فتتمثل في الأراضي والبساتين الموقوفة على الزاوية والتي تساعد على سير حياتها، وَمرافق أخرى كالمسجد، والبيوت المخصصة لتدريس القرآن الكريم، وَ مسكن الشيخ، وَ بيوت لاستقبال الزوار والضيوف ومخازن لحفظ المؤن. وَفي غالب الأحيان، تحيط بالزاوية منازل يقطنها الأهالي الذين يقومون بالعمل في خدمة الزاوية والزوار الذين يأتون إليها، وَعابرو السبيل، كما يمكن للزاوية أن تحصل على هدايا وَ هبات مختلفة.

وَ لابد من الإشارة إلى وجود ثلاثة أنواع من المواثيق الهامة لتسيير وتنظيم الزاوية :

1 معاينة ميدانية مع شيخ زاوية الممشاوية بوكلي حسن صالح يوم 19 جوان 2001.

* وثيقة الملكية :

وتشبه عقد ملكية وهي توضح الأملاك المعنية في العقد التابعة للزاوية.

* وثيقة عقد الملكية :

وتوضح الأملاك التي هي موقوفة على الزاوية والتي لا يمكن بيعها أو التصرف فيها.

* القانون الأساسي الداخلي للزاوية :

وهي وثيقة أساسية تحدد فيها مهام الشيخ ومهام القائمين والعمال، و يتم فيها توضيح تفاصيل الحياة اليومية داخل الزاوية بدءا بتقديم الأكل إلى التعامل مع الطلبة والمسافرين، وتوضيح جميع المعاملات سواء الداخلية والخارجية[1].

3- الزيارة :

من المعلوم أن جميع من ينتسب إلى الزاوية يدفع مبلغا يسمى "الزيارة" و هي نوع من الضريبة الخاصة التي تفوق غالبا كل الضرائب الرسمية، ومَع ذلك فإن المنتسبين لا يبدون أية رغبة في رفض دفعها.

ويَقصد بالزيارة أيضا غير المبلغ المالي المذكور، إذ هي موعد سنوي حسب التقويم القمري والشمسي، والمواسم الفلاحية، يراعى في موعدها زمن الحصاد وتوفر الغلة، وتَقترن الزيارة بذكرى وفاة عالم أو ولي صالح صار مثالا للاقتداء. وتعد الزيارة اليوم، تظاهرة ثقافية واجتماعية شاملة، والاحتفال بها في الأصل يدوم

1 حوار مع مريد يدعى بلبالي عمر من زاوية توات أجريته معه يوم 2001/06/15.

ثلاثة أيام، أوّلها خاص بالإعداد وَالاستقبال، وثانيها تبدأ فيه "السلكة" بعد صلاة العصر، وهي تلاوة القرآن جماعة إلى فجر اليوم الثالث، وَثالثها يوم الزيارة وَ فيه تتم الفاتحة بعد ختم القرآن، ثمّ التضرّع وَالتذلل إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، أما اليوم الرابع فهو مخصص لتوديع الضيوف.

وَ تتخلل مواسم الزيارة أهازيج فولكلورية، أهمها البارود و "الحضرة"، إضافة إلى ما يصحبه من كسوة ضريح الولي الصالح، وَ تبييض "المقام" بالجير.

والزيارة هي أيام عادية لا تمنع فيها أشياء ولا تباح أخرى، ولكنها تشكل فرصة للقاء والتعارف. وَ صلة للرحم وَالتضامن، إلى جانب الزخم الثقافي المتنوع الموروث عبر الأجيال وَالذي يشكل لحظات التمسك بالجذور وَالإبداع، وَالسحر الخالد الذي جسدته عبقرية إنسان المنطقة.

ففي ولاية أدرار مثلا، يوجد مائتان وَأربعة وَتسعون قصرا، تستمر هذه الزيارة عبر سكان القصور، حيث تتفق هذه الزيارات في عدة قواسم مشتركة، إلا أن البعض منها حمل مميزات خاصة مما جعلها أكثر استقطابا للزوار كزيارة الشيخ سيدي سليمان بن علي الذي نزل بأولاد عيسى عام 593 هـ وبها أسس أول زاوية بالمنطقة، وسيدي سليمان الذي ينتسب إلى شرفاء تلمسان و يُعرف بسلطان "تيمي" ثم زيارة الشيخ سيدي الحاج بلقاسم من أعلام القرن العاشر، واحتفاله منصوص عليه في أحباس الزاوية يرثها الأبناء عن الآباء والأجداد. وزاويته هي زاوية شيخ ركب الحجيح وتصادف الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، ثم زيارة مولاي عبد

الله الرقاني وَهو من أعلام القرن السابع الهجري، بزاويته في رقان تنتهي قصور توات، وتتميز زيارته "بالفاتحة الكبرى" التي تعقب اختتام "السلكة" في مغرب آخر يوم من زيارته، ثم زيارة مولاي عبد القادر الجيلالي وهو شيخ الطريقة القادرية، ودفين بغداد، ويحظى باحترام كبير لدى سكان المنطقة،ولا يكاد يخلو قصر من مريديه وتقام له سنويا زيارات يختم فيها القرآن الكريم، ويتم فيها تذكر مآثر هذا الولي الصالح، وقد ذكر لنا أن منطقة أدرار تحتضن أكثر من مائتين وثلاث زيارات في كـــل عام[1].

4- الضيافة و التعاون :

تقوم الزاوية باستضافة الزوار، وطلاب العلم والمعرفة وخاصة حفاظ القرآن الكريم، كما تساعد الأهالي الفقراء وَالمساكين، وَ تعين المحتاجين، غير أن أهم وظيفة تساهم بها الزاوية في هذا المجال هي :

أ) مساعدة الفقراء والمعوزين حيث تفتح أبوابها لهم، فتوفر لهم المأوى و المأكل.

ب) القيام بعملية الصلح في حالة وقوع النزاعات ويتم الانتقال من الزاوية بالتهليل إلى القصور المجاورة لإقامة الصلح وإلى مناطق الأهالي.

وَمثال على ذلك ما فعله شيخ الزاوية سيدي بن عمر والذي تدخل لحلّ خصومة وَقعت بين أسرتين من أسر ضواحي ندرومة، وكان سبب النزاع هو

1 حوار مع مريد الحاج مرابط تاجر أجريته معه بتلمسان يوم 2001/05/10 بدكانه.

الاعتداء على شرف فتاة من أسرة منهما، فقد قام أخ الفتاة بقتلها لما بلغه أن " أحد الرجال كان يعاكسها، واحتدم الصراع حتى أنه خرج من البيوت إلى الشارع ولم يتمكن الدرك الفرنسي من إيقاف التطاحن على الرغم من كثرة عددهم فبلغ الخبر لشيخ الزاوية آنذاك وكان يومها السي محمد بن عمر وَهُوَ الوصي على رئاسة الزاوية، فذهب إلى المكان بنفسه وهو يلبس رداء من الصوف بصحبته السي لعرج (مدرس قرآن) فقال له الشيخ : سِر ورائي وَأمره أن يردد قولا أو دعاءا، ثم سار الشيخ وكاتبه حتى المكان الموعود، فحمل السي محمد بن عمر برنوسه الذي كان يرتديه ورفعه عاليا، فانقسم الحشد إلى قسمين وَ وقف الشيخ في الوسط وَ تحاكم إليه رجلان، وَ أخبروه بالواقعة، فأمر بإحضار المتسببين من كل عائلة، وَلما حضروا استجوبهم، ثم اقتادهم إلى مقر الزاوية، أمّا البقية المتطاحنة فعادت إلى بيوتها. وبعد مرور زمن أقام فيه المتهمان في حضرة الشيخ، تمكن من إقامة الصلح بينهما وإطفاء لهيب الفتنة، فتنازل كل منهما عن نزعته الجاهلية، فأمرهما الشيخ بالعودة إلى أهليهما ....."[1].

كما قامت الزاوية بأدواء صحية وقائية كقتل الحشرات الضارة المتواجدة أو جمعها لاستخراج سمومها واستعمالها كأدوية.

كما اختصت بعض الزوايا بركب الحجيج لوقوعها على الطريق وذلك مثل

1 زاوية سيدي بن أعمر إشعاعاتها الاعتقادية وَ الثقافية النفسية: بن لباد الغالي، رسالة ماجستير تحت إشراف الدكتور شايف عكاشة و مساعدة الدكتور سعيدي محمد 2000 / 2001

زاوية سيدي الحاج بلقاسم الموجودة بقورارة.

وَ بعضها يساهم بفعالية كبيرة في تنظيم التعاون بين الأفراد في القرية مثل تنظيم "التويزة" التي يتعاون فيها جميع الناس.

كما ساهمت الزوايا أيضا في إيجاد عمل مستقر لكثير من الأشخاص سواء داخل الزاوية أو في البساتين والأراضي التي تملكها خارج محيط القصر في الصحراء أو القرية في الشمال[1].

وَ من الأعمال الجليلة التي تقوم بها الزاوية أيضا هي جمع أموال الزكاة وتوزيعها على الفقراء والمساكين و ابن السبيل، وَ تنظيم مراسيم الختان لأبناء الضعفاء والفقراء كما نشاهده في أعمال زاوية المامشوية مثلا والسهر على تزويج الشباب والشابات وتوفير الإمكانات الضرورية لضمان عيشهم، وتكوين أسرهم[2].

كما لعبت بعض الزوايا أغراضا دفاعية مثل زاوية" كـــنة" بأدرار التي قامت بأدوار روحية وثقافية، ثم اقتصادية وتجارية، حولت الصحراء إلى بحر آمن للعلاقات التجارية وهمزة وصل بين المغرب وغرب إفريقيا.

وَ قامت زوايا أخرى بمقاومة أعداء الإسلام من اليهود وَ هو ما فعلته زاوية "تاسفاوت" الجرارية حيث امتازت في عهد الإمام المغيلي بدورها بالجهاد ضد اليهود وَ حركاتهم التجارية والاقتصادية، وَ انتفضت ضد تهويد الاقتصاد المحلي، فأنشأت

1 وثيقة تسلمتها من زاوية أدرار عن طريق الطالب بلبالي عمر يوم 05 مارس2001.
2 حوار مع أحد المسيرين لزاوية المامشوية "السيد سبيع عبد القادر" يوم 02 أفريل 2001 بتلمسان.

أسواقا موازية لأسواق اليهود بتيميمون[1].

وَ عملت أكثر الزوايا على تخريج علماء أفذاد وَطلاب المعرفة كشأن الزاوية البكرية التي تعد من الزوايا البارزة بمنطقة أدرار، وَ قد تخرج منها جملة من العلماء وَذلك هو سر انتشار فروعها التي تجاوزت حدود الوطن لتدخل تونس وَ ليبيا كما ذكرناه سابقا.

وَممّا لاشكّ فيه أنّ شيخ الزاوية تربطه روابط متينة مع مريديه. لهذا يمكن القول بأنّ الزوايا قد نشأت و تطورت في كنف الظروف الاجتماعية المختلفة التي عرفها البلد الذي يحتضنها، وَكذلك النشاط السياسي والاقتصادي للبلد الذي تنتمي إليه.

إنّ ما يميّز حياة المسلم، خاصة في ماضيه هو الاضطرابات المختلفة والصراعات المتنوعة التي كانت تعكر راحة باله و تكدر وِئامه و سلمه، فكان والحالة هذه في أمسّ الحاجة إلى إنشاء تجمع و استقطاب سند روحي يؤمنه و يضمن له المساعدة المعنوية والمادية. كما يجعله يكتسب الثقة والأمان. و من أجل هذا أصبحت الزاوية مطمح الأنظار وَقاعدة للاستغلال الفلاحي، والتجارة الصحراوية.

أمّا الزوايا الفرعية، فقد تمكنت من تأليف خلايا مستقلة حقيقية سياسيا واقتصاديا؛ وَاستطاع القائم بها أي "الشيخ" أو "المقدم" أن يحولها إلى خلايا ذات نشاط سياسي مؤكد، ذلك أنّ "الخوان" كانوا يرضخون رضوخا تاما و دون أي جدال لتعاليم وَأوامر هذا الشيخ.

1 وثيقة تسلمتها من زاوية أدرار عن طريق الطالب بلبالي عمر يوم 05 مارس 2001.

الفصـــل الثـــالث

الوظيفة التربوية والنفسية واللغوية

1- الوظيفة التربوية

ممّا يشد الانتباه و يجذب النظر أن التصوف تميّز بالتفكير الحر، و أنّ هذا التصوف هو الذي كان في الأساس المصدر المباشر في نشأة الزاوية. فكيف يا ترى انتقل ذلك التفكير الحر الذي عرف عند المتصوفة إلى الاستبدادية المطلقة التي تقمصها الشيخ في الزاوية. لعل هذه النتيجة تعود إلى تطبيق مبدأ الخضوع المطلق لله سبحانه وتعالى، و إلى عاطفة أكثر إنسانية ممثلة في المسؤولية الملقاة على عاتق فرد واحد ذي حكم ذاتي و لكن يخضع له جميع مريديه، و يثقون في أحكامه و أوامره. و قد تفسر هذه الصورة بأنها انتقال في المستوى الديني للسلطة الطبيعية الـــتي كانت بيد رب العائلة، أو رئيس العشيرة في المجتمعات البدائية[1]. و يـــزعم J. P.André بأنّ هذه الخلاصة هي التي تفسر لنا في تاريخ الإسلام تعدد الفِرق الدينية، والمذاهب، والجماعات، والطرق، والزوايا.

إنّ تعدد هذه الجماعات الدينية الناتج عن صراعات روحية داخلية، جعلت مثلا إخوان الصفا، في العهد العباسي يتعرضون إلى أشد العذاب والتنكيل، لا لشيء سوى لأنّهم أرادوا الرجوع إلى الأحكام الإسلامية الأولى بكل بساطة، وهو ما حدث كذلك لدرقاوة، والرحمانية والقادرية، و هم من أصل بربري في شمال إفريقيا قد قاوموا حكام عهدهم الذين كانوا يملَقُونَ من سطوة هذه الجماعات، و يحتارون من أمر قوتهم في المجالات السياسية والاجتماعية والتربوية.

1 Anthropologie : André Akoun – Paris 5. Sorbonne, p. 607.

و نتيجة لهذا برزت خمس زوايا رئيسية هي :

- القادرية بتعاليمها الإنسانية المفعمة بالرحمة و الرأفة والإيثار والصدقة.
- الخلوتية : المستغرقين في التأمل، الميالين للذهول و الافتتان.
- الشاذلية : ذوي النزعة الروحية.
- النقشبندية : أصحاب الانتقاء والاصطفاء.
- الصهروردية : و هم أصحاب وحدة الوجود.

ثمّ تفرعت هذه الفرق الخمس إلى فروع متعددة كانت تنشد من وراء نشاطاتها (الفناء) أي الاتحاد الروحي مع الإله، ومن ثم ظهرت في المغرب العربي طرق معروفة هي القادرية و فروعها وَ "العيساوية" وَ "الرحمانية" و "التيجانية"، وَ هاتان الأخيرتان متفرعتان عن "الخلوتية". أمّا درقاوة، فقد تفرعت عن الشاذلية، بينما اشتقت السنوسية من الخاضرية.

ولقد سبق القول بأنّ كل زاوية تعرف باسم رجل صالح أو وليها أو مؤسسها.

أمّا المبدأ والمنهج العام والمفتاح الجوهر الذي تقوم عليه كلّ زاوية فهو الذكر الذي يمثل التذكر والترتيل والاستذكار والمثل والتفكير والصلاة.

إنّ تلاوة الصلوات و ترديدها يوقظ ذكريات الأفكار الوجيهة الأساسية. أمّا التأمل والترتيل فهما اللذان يشدان الفرد للفكرة الإلهية.

و معنى هذا أنّ الزاوية تقوم بدور فعال في تثبيت أصول التربية الحسنة في

نظرهم وتوجيه المريدين نحو تعاليم الشيخ، الممثل الحقيقي للزاوية. إن شيوخ الزاوية، والمسمّون في اصطلاحهم بالفقراء يكونون قد تطَهَّرُوا من أمور الدنيا ومادياتها ويكون الله سبحانه وتعالى قد منح لهم بصيصا من سلطته الإلهية، والمتمثل فيما يسمى عندهم بالبركة. وعند هذا الحد يقوم بدور الوسطاء من أجل تربية وإصلاح الناس في أمورهم فيبلغون لتلامذتهم الأذكار، والطرق المختلفة لتكرير الأوراد، التي ترفعهم إلى ما وراء الطبيعة، إلى جانب منحهم الصيغة التي يوحيها الله تعالى إليهم، وهذه الصيغة هي الذكر، تلك الوسيلة المعلومة التي يتعالون بها إلى الذهول الأسمى، واتحاد مع ذات الله تعالى. إن الذكر هو "الوسيلة" التي بها تجنى الثمار، فيحصل الثبات، وترفع بها الحجب، ولذا رأى أهل الصوفية أن عالم الذكر أربع حلقات متصلة المسلك، يكون بذكر اللسان مع الحضور، ثم ذكر القلب ثم ذكر الروح، ثم ذكر السر، وهو الشهود والعيان، وهنا يخرس اللسان، ويغيب الإنسان في أنوار العيان، بل يحرص أهل الصوفية على أن يُرَبُّوا مُريديهم على الإكثار من ذكر الله تعالى[1]. ولكن كيف تتم عملية الذكر ؟

تتمثل عملية الذكر في تكرار دعاء عدة مرات يصل أحيانا إلى مائة أو ألف مرة تبعا لتعاليم شيخ الزاوية، حيث إن هذه التكرارية المتضاعفة تخلق في نفس الذاكر الرضى التام، والقناعة الكاملة و الاطمئنان السليم. قال بعضهم :" إذا أراد الله

1 المبتدئ في التعرف على التصوف السني : الشيخ مصطفى سنوسي – 1996 – ص 42.

تعالى أن يولي عبده، فتح عليه باب ذكره. فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ثمّ رفعه إلى مجالس الأنس ثمّ أجلسه على كرسي التوحيد ثمّ رفع عنه الحجب و أدخله دار القرب و كشف له الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة، خرج من حسه و دعاوى نفسه فيحصل حينئذ في مقام العلم بالله، فلا يتعلم بالخلق بل بتعليم الله و تجليه لقلبه فيسمع ما لم يسمع و يفهم ما لم يفهم غيره، و قربُ الرب بالعلم والقدرة عام للناس وباللطف والنصر خاص بالخواص وبالتأنيس خاص بالأوليـــاء "[1].

فالذكر بهذا المعنى هو انقطاع المريد لله سبحانه وتعالى انقطاعا كليا ليلا وَ نهارا. ولا يزال هذا المريد يذكر الاسم المفرد (الذي هو الله) بلسانه و يهتز به حتى يمتزج بلحمه و دمه و يسري بأنوراه في كلياته وَ جزئياته، فيتحد الذاكر والمذكور. قال الحاج بلقاسم بن حراث :

الذكر باب عظيم أنت داخله * فاجعل لمنزله الأرفاس حراسا[2]**

و تجدر الإشارة إلى أنّ كل زاوية تقوم على قواعد و مبادئ مميزة لها. فالتأمل المرافق للتقشف والزهد والتنسك والمقام في خلوة تامة يشترك فيه عدد قليل من المريدين بصاحب الترتيل الجماعي الذي ينتهي بالأفراد إلى حفل روحي منسجم وَ رقصة انتشائية[3].

1 وصية الذاكرين في نبذ المنتقدين : حاج بلقاسم بن حراث، ص 30.

2 المرجع السابق، ص 24.

3 La mosquée : Lucien Golvin; Institut d'études supérieures islamiques d'Alger; Palais d'hivers; 1960; p. 21.

إنّ الرقصة التي تتبع هذه العملية الروحية يختلف اسمها من طريقة لأخرى وَمن زاوية لأخرى حسب الحالات والبلد. فهي "الصمص" أي حفل روحي، ثمّ الجدبة، وهي رقصة تنتهي إلى نشوة حماسية وافتتان تخص الزوايا الشعبية، و تنتشر عبر بلدان المغرب خاصة عند عيساوة، ثمّ "الحيرة" و "التحير" وَهي رقصة تنتهي بتخضير كامل و دهشة ذهولية خاصة عند عيساوة بالمغرب. ثمّ "النوبة" وهي رقصة يظهر فيها الراقص ندمه و حسرته، و يعلن عودته إلى سبيل الله عز وجلّ، وَهي خاصة بزوايا "سُوف" وَ "فقيق"[1].

كما يطلق عليها أيضا مصطلح "زهدة" وهي رقصة تتميز بالتقشف والتزهد و بحركات حماسية مملوءة بالحمية والورع مما يجعل صاحبها يفقد وعيه و يخرج عن عالمه الدنيوي. وقد استخدم إخوان الصفا مصطلح الزهد الذي هو عندهم " ترك فضول متاع الحياة الدنيا، و ترك طلب شهواتها، و الرضى بالقليل، والقناعة باليسر من الذي لابد منه "[2]. ثمّ يوجد كذلك مصطلح "الخمرة" الذي يمثل الوصول إلى الكمال والتمام، وقد ورد كثير في شعر المتصوفة من أمثال أبي مدين شعيب دفين تلمسان. وأخيرا "الحضرة" عند درقاوة وهي رقصة حماسية تردد أثناءها بعض الأذكار الخاصة بهم.

والجدير بالإشارة أنّ هذه المصطلحات كلها تشتمل على جوانب تربوية

1 المرجع السابق، ص 21.
2 إخوان الصفا : عمر الدسوقي، القاهرة، الفجالة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط3، 1973، ص246.

يتلقاها المريد عن الشيخ، و يتحلى بها طوال حياته. إنّها تمثل مبادئ تجرد النفس والأفكار المتعلقة بالنشوة، والوجد والذهول والافتتان، و إبطال الذات و إنكار النفس والاتحاد التام والمطلق مع الحقيقة السامية العليا، و كذلك الفناء و البقاء[1].

وهذه المبادئ كلها تتدرج ضمن قيمة تربوية ذات بعد انثروبولوجي عميق تتمثل عموما في فكرة التلقين؛ إذ يفصل المريد في مرحلة أولى عن العالم الخارجي، و ينزوي لفترة الانعزال، فيتعلم من كلام الشيخ تاريخ الزاوية وتأسيسها، و مآثر رجالها، وَمعاني رموزها ودلالات أذكارها، و منزلة المقيمين بها، و أسرار وجودها و احترام أحكامها وَقواعدها، والارتباط المطلق بمبادئها. كما يخضع المريد إلى اختبارات يتعالى بها عن مادته كالصوم المستمر، وَالصلوات المتكررة، والأذكار الدائمة؛ ممّا يساعد على القضاء التدريجي للشخصية القديمة و نشوء وَ تقوية الذات الجديدة، فتنمو القدرات الحيوية للمتعلم، وَتغذي شجاعته وَمقاومته للألم، وَمواجهته للمصاعب؛ كما تغرس في نفسه ملكة الانضباط الاجتماعي و طاعة الشيوخ.

وما يدخل كذلك في سياق النشاط التربوي للزاوية هو كونها تنظم العديد من الاحتفالات تدمج من خلالها برامج ثرية تحتوي على الكثير من المميزات أحيانا تجعل الزوايا تختلف بعضها عن البعض، وَ تعطي لكل واحدة منها طابعا خاصا تنشر من خلاله شهرة الزاوية، و يرتقب العديد من الزوار والحجاج حلول موسم كل

1 E. Dermenghem : Le cult des saints dans l'islam Maghrebin : ed. du seuil ; p. 32.

زاوية للمشاركة فيه، و استغلال فترات الترفيه و مناسبات التقارب فيما بين مختلف العائلات، والعروش والأهالي، والمريدين، والشيوخ الذين يجدون في ذلك حقلا شاسعا، ومجالا خصبا لتبادل المستجدات في التفقه، والتنظيم الأخلاقي، و معالجة كل القضايا التي لها علاقة بالسلوك البشري، و الترابط الاجتماعي لجميع الوفود والتي تعتبر مكونا جديرا لخلايا الزاوية.

فبالإضافة إلى احتفال الزاوية بالأعياد الدينية والتي تعطيها الزاوية طابعا مميزا عن باقي الاحتفالات لنفس الأعياد في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، كأعياد الأضحى والفطر والمولد النبوي الشريف. فإنّ كل زاوية تخصص لنفسها ما يسمى بالوعدة، وهي عبارة عن لقاء غير محدود العدد لكافة العروش والقبائل والأهالي، والمريدين والشيوخ، و محبّي الزاوية، والمتعاطفين معها، والزوار، والضيوف في فترات زمنية محددة يلتقي الجميع لإقامة احتفال عظيم بمقر الزاوية، ويكون بمثابة عرس كبير يفرح فيه الأقارب والخلان والمريدون وَشيوخهم. والهدف من الوعدة غالبا، وفي معظم الأحيان هي لمّ شمل الأهالي والتعارف بينهم، وَمعالجة و إيجاد الحلول الناجعة لجميع المشاكل الاجتماعية والأسروية العالقة.

فالوعدة هي مناسبة ثمينة " لِلمِّ شمل الأهالي والتعارف بينهم، و كذلك لإصلاح و تصفية القلوب الحاقدة من مجمل العروش والأهالي "[1].

1 زاوية سيدي بن عمر، إشعاعاتها الاعتقادية والثقافية والنفسية لبن لباد الغالي، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2000-2001، ص 68.

و الجميل في الأمر عند التقاء الأشخاص في وعدة الزاوية هو تلك الحكمة الأخلاقية التي يمتاز بها الجميع والمتمثلة في التضامن العام للأشخاص فيما يخص جميع السلوكات المقدمة. فإلى جانب الترحاب الكبير لكل الضيوف، و استقبالهم أحسن استقبال، و تأمين إقامتهم عند كل القاطنين الدائمين بديار الزاوية و أوقافها؛ هناك ظهور جليّ لأمثل التصرفات الأخلاقية والتربوية لسكان الزاوية، فلا تضيق بهم الديار عندما يقتسمونها مع ضيوفهم و زوارهم، ولا تقلق القلوب، و لا تخشن الأنفس، بل عكس ذلك، نلاحظ رموزا عديدة من الحكمة، والتآخي تتمثل خصوصا في تبييت الضيوف داخل منازلهم، و إطعامهم، و إشرابهم، والعناية بهم طيلة فترة إقامتهم.

والملاحظ أن الإطعام في بعض الزوايا يكون على شكل "تويزة"، وهي نوع من التضامن المادي، بحيث يقدم كل عرش أو قبيلة أو أسرة كبيرة مغانم في شكل هدايا بمناسبة الوعدة، ومن خلالها يقتسم أفراد العائلة أو العرش أو القبيلة مهامهم بين شيوخهم، و رجالهم، و نسائهم، و مريديهم، ويذبحون الأغنام، ويحضرون الأطعمة التي تمنح و توزع على كل الحاضرين سواء أكانوا من الحجيج أم من عابري سبيل، و يعتبر هذا التصرف أحيانا صدقة، تُذَكِّر بمحامد عظيمة، أو يَتَرَحَّمُ بها المتصدقون على موتاهم من أجداد و شيوخ و مفقودين أعزاء عليهم، أو تعتبر من الاعتقادات الحميدة لإبعاد الروح الشريرة عن العرش أو القبيلة أو الأسرة،

و تحفظ الأمان، والاطمئنان، والأموال، و الأرزاق لذويهم، و أفراد عائلاتهم.

وغالبا ما تتبع إطعام الناس والضيوف، إقامة حفلات ترفيهية تعبر عن أصالة ثقافية و سلوكية نكتشف من خلال عروضها المقدمة محبة المجد، وَ عزيمة المحافظة على تراث أصيل، عميق داخل التاريخ، يُذَكِّر بزعامات وَأمجاد فَقَدت بصماتها في التمدن والتحضر، و بقيت صامدة في قلوب المريدين من خلال ارتباطهم الوطيد بالزاوية، وأصبحت تعبر عن تاريخ ثري لن يكتشف إلاّ في مناسبات مثل مواسم الوعدة؛ حيث يلتقي الشيخ المتفقه، والمريد المتعلم، والشخص العادي الزائر، والفارس، والبهلواني المضحك، والكريم المطعم، والطباخ الماهر والشاعر المنشد. وَ يتمثل كل هذا في نسيج تربوي هائل، تلتقي فيه الثقافات وَ تتبادل الأفكار، و تعالج المشاكل، و أحيانا تعقد القرائن للعزاب والعازبات لتضرب في كل مرة موعدا تربويا و ثقافيا جديدا[1].

وممّا يثير الانتباه أثناء القيام بمراسيم الوعدة في الزوايا التي تجعلها سنة معادة، هو تعلق أهلها والحجيج إليها بالعادات والإخلاص التام للعبادات. و ممّا جاء به الإسلام هو وجوب توحيد الله والإخلاص له في جميع الأعمال ما كان منها عادة، وما كان منها عبادة. ممّا جعل أبا إسحاق الشاطبي يقرر كتاب "المقاصد" بوجود :" كليات لها تعلق بهذا الموضوع، و شرحها و بسط القول فيها، الكلية الأولى أن المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا له اختيارا كما هو عبد لله

1 استنباط شخصي من خلال معاينة ميدانية والتحدث إلى بعض شيوخ الزوايا.

اضطرارا؛ الثانية أن المقاصد الشرعية ضربات، مقاصد أصلية، و مقاصد تابعة، فالأولى هي الفروض التي لا حَظَّ فيها للنفس، والأخرى هي المباحات العادية التي روعي فيها حظ المكلف، الثالثة أن العمل إذا وقع على وفق المقاصد التابعة فلابدّ أن تصاحبه المقاصد الأصلية "[1].

و نجد أهالي الزاوية تحت رعاية شيوخها و مريديها تحرص كل الحرص على احترام المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية دون المبالغة فيها، و فتح المجال للأشخاص وَلا سيما في مواسم الوعدات بالقيام بحفلات ترفيهية دون التجاوز فيها، فتدق الطبول، و يتنغم أهل الفلكلور، و تتلاحق الفرسان في عمليات تنافسية في ركوب الخيل، و إطلاق البارود، وكل ذلك في إطار منتظم و تسيير محكم، فما أن يحل وقت الصلاة إلاّ و تجد الأهالي عاكفة لله سبحانه وتعالى، شاكرة نعمه، و طالبة منه المزيد.

و شيوخ الزاوية غالبا ما يَتعَبُون عندما يحرصون على التلقين الصحيح للدين، و مواجهة المخالفين للشريعة الإسلامية خاصة من أولئك الذين يؤمنون بالاستمداد من الأرواح، وهي أرواح الصالحين الذين يأتون لزيارتها، فهناك العديد من الزوار والضيوف الذين يعتقدون بأنّ الصالحين أحياء في قبورهم يتصرفون في العالم، ويقضون حاجات قاصديهم، وهذه الظاهرة غالبا ما تكون نواة لنشأة زاوية جديدة؛ حيث يشرع في البداية باتخاذ مزارة، و تبنى عليها بناية، و يرى المجاورون لها، أو من بناها منهم بأنّ روح الصالح فلان هنالك، إمّا لأنّه دفن هنالك أو جلس

1 رسالة الشرك و مظاهره لمبارك بن محمد الميلي، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ص 230.

به، وهنا لا يفوتنا أن نذكر المثال الواقعي الموجود في العديد من نواحي البقعة الأرضية والمتعلق " ببناءات كثيرة على مزارات عديدة كلها منسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد رحمه الله، وهو لم يعرف تلك الأمكنة ولا سمع بها، وهذه المزارات الجيلانية نجدها غربي وطن الجزائر أكثر منها في شرقه "[1].

و يعتبر شيوخ الزاوية المتفقهون في الدين، والمكلفون بتقديم التربية الصحيحة، والسليمة من كل عيوب التشويه والمبالغة، يعتبرون كل هذا جهلا وَضلالا، لأنّ توحيد الله، والتوجه إليه من أولويات التربية الإسلامية التي تهدف إليها اجتماعات الزاوية، ولا تأثير للأرواح التي في عالم الملكوت في شيء من عالم الملك.

و قد كان العلماء المسلمون قد قبِلوا بالفكرة المبدئية للعودة إلى تطبيق الإسلام كما أرسل في بداية نشره مع محمّد (صلعم) و ذلك عن طريق تنظيم المسلمين في جميع بقع العالم، وخاصة الزوايا منها، من أجل التضييق من التهجم الحضاري للغرب على الشعوب الإسلامية خصوصا في الدول التي عاشت في كنف الاستعمار. وقبل العلماء المسلمون هذه الفكرة المبدئية للمحافظة على التربية الإسلامية، و محاربة كل أنواع التشويه والتبديل والانحراف عن الدين الصحيح في المؤتمر الإسلامي ليوم 07 نوفمبر 1936 في الجزائر. وَممّا جاء فيه المقال الشهير للعلامة الشيخ الطيب العقبي الذي صرح قائلا :" في اليوم الذي تبتعدون فيه كثيرا عن عـبادة

1 المرجع السابق، ص 227.

الأولـــياء وَ الأضرحة، وَتملؤون عقولكم بالمعارف؛ فإنّه بإمكانكم طلب الاســـتقلال"[1].

ولعلّ هذا دليل قاطع مصرح به من طرف العلماء، ولا سيما إبان الاستعمار و مُعَبِّر عن تخوفهم من الانزلاق من تقديم التربية السليمة وَ إن كانت دينية، إلى تقديم تربية مشوهة شجعها الاستعمار ليبسط نفوذه وَ يخلق الخلل والتفكك الاجتماعي وَالأخلاقي والتربوي داخل المجتمع.

و نخلص من هنا إلى وجود نوعين من الزوايا، زوايا عرف أصحابها بالورع والصلاح والدين الصحيح، وهي التي نعتني بها في هذا البحث؛ و زوايا أخرى ينبغي أن نكشف عن عملها و نشاطاتها لأنّ أصحابها ينتحلون شخصية المتدين والولي، وَيبنون جاههم وَنبلهم وَشهرتهم وَسمعتهم على الغش والتحايل والتضليل و الانخداع.

إنّ هؤلاء الأشخاص شيدوا زواياهم على براءة الأهالي وَأضروا بالمجتمع و جهّلوا أفراده، وَ غرُّوا بالشباب الذين التحقوا بمؤسساتهم. و قد أبان عن نياتهم الخفية النحسة علماء ثقاة ذوو عبادة صحيحة، و تعاليم دينية سليمة، احترموا طوال حياتهم القواعد الإسلامية في شموليتها و صانوا مبادئ القرآن الكريم، و جاهدوا ضد الجهل والظلام، والعبودية كانت حياتهم المبنية على الصلاة والزكاة والزهد والتأمل. هؤلاء الصالحون هم الذين تصدوا لأولئك النقاة المزيفين وأشهرهم في الجزائر العلامة ابن باديس على سبيل المثال حين هاجم هذه الفئة من الناس المنتمية

1 Contribution à l'étude des confréries religieuses musulmanes; P. J. André ; Ed. maison des livres ; Alger ; p. 33.

لبعض الطرق والزوايا التي ابتعدت عن الطريق المستقيم، أو كما فعل الشيخ مبارك بن محمد الميلي حين كتب رسالته " الشرك و مظاهره " حيث تصدى فيها لمسألة السحر والعزيمة والمزارات وَالزردات وما إلى ذلك؛ وهي أمور لا تتماشى و التربية الإسلامية الحقـــة.

والواقع أنّ الزوايا التي كان لها صيت واسع في الأوساط الاجتماعية نظرا لنهجها الصحيح و طريقها المستقيم، تعدُّ عاملا جوهريا في نشر الدين إلى أبعد المناطق من القطر الجزائري و غيره. إنّها عملت على ترسيخ القرآن الكريم والمبادئ الإسلامية والمحافظة على اللغة العربية. لقد كانت هذه الزوايا حاجزا منيعا ضد الفرنسة والتمسيح و انحلال الأخلاق والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع الفرنسي المستعمر، تلك الزوايا التي قام عناصرها برفع راية الجهاد ضد المحتل الغاصب مثل "السنوسية" في ليبيا ضد الإيطاليين وَ "المهدية" في السودان ضد الإنجليز، و "التيجانية" ضد الفرنسيين وَالإنجليزيين في إفريقيا السوداء وفي الجزائر، و"القادرية" برئاسة الأمير عبد القادر، و"الرحمانية" بقيادة الشيخ الحداد، وأولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني... هؤلاء بعض ممن برهن بالدليل و تحمل باليقين مسؤولية خوض معركة التحرير رغم ما يوجد بينهم من خلافات[1].

و يعتمد أهل ألزاوية إلى جانب هذا في تربية نفوسهم والسيطرة على مشاعرهم، عَلى الأوراد و ترتيلها في مناسبات خاصة.

---

1 Algérie : terre de foi et de culture ; p. 107/108.

و الملاحظ أن فكرة الورد تنحصر في الأسلوب الذي رتبه الإنسان على نفسه من أنواع الطاعات العبادات. والوارد هو ما يكرم الله عز وجل به قلب الإنسان من فيوضات، وأنوار، و لمعان. و قضية الورد والوارد تجعلنا ندرك ضرورة أن يكون للمسلم أوراده اليومية.

و يعني ذلك أن الله عز و جل فرض على المسلم فرائض متنوعة و طالبه بأعمال كثيرة، و القلب البشري يحتاج إلى أنواع من الواردات المتعددة، فيكون إذن لكل عمل آثاره في القلب إذا صحت النية.

و متى وجد الورد، فقد يوجد الوارد، سواء أحس به الناس الآخرون أم لم يحسوا. و للورد أهمية كبرى على سلوك الإنسان، فقد تأدب بفضل ترديده الكثير من جهلة التصوف الأعمى. كما حفظ قلوب البعض الآخر عن الزيغ والعناد و عصم جوارح الآخرين من البغي والفساد و سلك بآخرين مسالك أهل المحبة والوداد و مكّن الكثير من أنوار الحقائق و أدخلهم في حصن حمايته.

و شيوخ الزاوية غالبا ما يحضون أهل الذكر على ألا يتركوا أورادهم، ولا يغفلوا عنها، لأنّ مجرد الغفلة عن ذكر الورد يبعد القلب عن التقرب إلى الله سبحانه و تعالى و يبعث بالنفس إلى البحث عن ارتكاب المفاسد.

و قد روى لي أحد شيوخ الزوايا الذين التقيت بهم عن تردد الورد ما يلي :

" لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأنّ غفلتك عن وجود ذكره أشد من

غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور و ما ذلك على الله بعزيز "[1].

و من بعض أنواع الأوراد، ورد الصلاة التي هي طهور للقلب من أدناس الذنوب واستفتاح لباب الغيوب، وَهي محل المناجاة وَ مَعْدن المصفاة تتسع فيها ميادين الأسرار، و تشرق فيها شوارف الأنوار، كما أنّها عِلْم وجود الضعف منك، و لذلك قلل أعدادها، و علم احتياجك إلى فضله فكثر امدادها "[2].

و معنى ذلك أن القلب البشري يحتاج إلى أدوية وأغذية، وفي الصلاة دواء و غذاء، وفي الصوم دواء و غذاء، وفي الذكر دواء و غذاء، وفي صلة الأرحام دواء و غذاء، وفي العلم دواء وغذاء. و من هذا جاءت أهمية الأوراد في حياة المسلم، و أهميتها في إصلاح قلبه وفي ترقيه.

و شكلت المدارس والزوايا خلال الاستعمار الفرنسي بما بثته من تربية حسنة و سلوكات حميدة في النفوس حصنا منيعا و برجا مشيدا انطلقت منه أفواج المجاهدين الذين أرادوا تحرير البلاد والقيام بالمهمة السامية والشريفة في مجال التربية وتكوين الجماهير، و قد احتفظوا بحركيتهم و حيويتهم عبر سنوات طويلة متصدين للمعمر الفرنسي الذي غصب البلاد و استعبد العباد بأفكاره المهيمنة

1 لقاء مع أحد المريدين الحاج مرابط بتلمسان يوم 07 جوان 2001.
2 من الشيخ نفسه.

والمذلة التي كان يرمي بها إلى فصل الشعب عن مبادئه، والتخلي عن هويته الوطنية وَثقافته العميقة. ولا زلنا نتذكر "القايد أحمد" وهو يقول في إحدى محاضراته: " إنّ أسوأ إهانة التي أراد الاستعمار أن يلصقها بالشعب الجزائري هي محاولة إعطائه ثقافة لا تتماشى و تطوره الاجتماعي السياسي الخاص به ..."[1].

و أمام لغة الإدارة الاستعمارية وَ كتابتها الطاغية و الظالمة هبت المقاومة الشعبية من خلال المدارس الدينية والمساجد وخاصة الحركة السياسية الوطنية التي عملت كلها على إفشال المخطط الاستعماري الهادف إلى إزالة الذاتية الجزائرية وتضييع الشخصية الوطنية. وكان لبعض الزوايا أيضا دور واضح في القيام بهذه المهمة خاصة في الحفاظ على الدين الإسلامي الحنيف وَصيانة الشخصية الجزائرية.

والواقع أنّ نشأة الزوايا سبقها نشاط مكثف لعدد لا بأس به من الرجال الصالحين الأولياء الذين طبعوا بخصوصياتهم مراحل مختلفة في التاريخ الإسلامي، فقد تركوا مدارس دأبوا عليها تلامذة و طلاب يرتشفون العلوم و ينشرون المعارف وَ يحافظون على العادات الحسنة والتقاليد الفاضلة التي لَقَّنَهم إياها أولئك الأولياء.

1 Algérie : Terre de foi et de culture; p. 107.

2- الوظيفة النفسية

نقل الدكتور محمد عبد الرحمان مرحبا عن الفارابي أنّه عرّف النفس بأنّها :" استكمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة "[1].

و يرى من جهة أخرى أنّ البدن ليس جزءا من تعريف النفس. فالنفس عنده هي معنى زائد على الجسمية، بل إنّه يتصوّر النفس تصورا صوفيا يكشف عن نزعة إشراقية واضحة، مضيفا أنّ الروح الذي للإنسان نفثة من العالم الإلهي لا تتشكل بصورة و لا تتخلق بخلقة و لا تتعين بإشارة و لا تتردد بين سكون و حركة[2].

و يعتقد أهل الزاوية في هذا السياق أنّ الزاوية قادرة على الارتقاء بالإنسان المريد إلى منازل الكرامات، فتتجلى له في أثناء سلوكه هذا أنوار و تبدو له أسرار، فتنسلخ روحه (أي نفسه) عن جسده بقوة الاستعاذة بالله والاستغفار والإنابة. ولا يكون له هذا إلاّ إذا تربّى على مخالفة هذه النفس و نهاها عن هواها بعزيمة جادة في مرضاة الله تعالى، و هم مستندون في توجيههم هذا إلى قوله عز و جلّ:" وَ أَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجنَّةَ هِيَ المَأوَى "[3]. كما يذهبون من جهة أخرى إلى أنّ النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها، فهو شريكها معها في فسادها[4].

و مخالفة النفس عندهم تتشكل في الآفات التي يحركها الشيطان حتى تطمئن

1 من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية : محمد عبد الرحمان مرحبا، بيروت، منشورات عويدات، ط1، 1970، ص 434.
2 ينظر المرجع نفسه، ص 441.
3 سورة النازعات، الآية 41.
4 حديث استقيته من الحاج مرابط بتاريخ

النفوس إليه فتساق إلى مهاوي الخسران، و هي كثيرة مثل الغضب الذي تصدر عنه حمية الجاهلية، فعلى المؤمن أن يملك نفسه عند الغضب لأنّه مفتاح كل شر، و مغفرة الله تنال الكاظمين الغيظ. و من ذلك أيضا الحقد والحسد إلى غير ذلك مما يسيء إلى النفس و يضر بالإنسان.

والمطلوب في هذه الحالات التريض على العفو والإحسان والرفق و حبّ القناعة والسخاء والإيثار. ذلك أنّ بعض العارفين يرون بأنّ النفس هي الروح بعد مخالطتها الجسد، و مخالطة الروح للجسد جعلت للجسد تأثيرات عليها و سبب هذه التأثيرات احتياجات الجسد التي تتبناها الروح، فإذا ما أصبح للجسد مطالب مرضية و لم يكن هنالك ضبط للنفس و صلاح في القلب، فإنّ مطالب النفس تصبح متناهية متجددة والجسد يسير في خدمتها نحو البوار، فعندما خالطت الروح الجسد أصبح لها تطلّعاتها، ومن تطلّعاتها الرغبة في الخلود الحسي أو المعنوي، وهو الموضوع الذي استغله الشيطان في إذلال آدم، قال تعالى :" هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَ مُلْكٍ لاَ يَبْلَى "[1].

و هكذا تتوالد عند النفس معاني توصل في أحيان كثيرة إلى أمراض، والأمراض يتوالد بعضها عن بعض و تتزايد أو تتناقض و لكنها تبقى أمراضا[2].

ومن هنا وجب على المريد أن يراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة، فإنّ لنفس تكاد تغلي حرصا على الإفشاء. و ينبغي أن يثبت قدم هذا المريد و يتذكر في مقابلة عظيم عملِهِ مُلْكَ الآخرة و نعيم الجنة و عظم غضب الله على من طلب بطاعته ثوابا من عباده، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به. و ينبغي كذلك أن يكون وجِلاً من عمله، خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم

1 سورة طه، الآية 120.
2 ينظر تربيتنا الروحية : سعيد خوى، ص 56.

يقف عليه فيكون شاكا في قبوله وَ رَدِّهِ مجوزا أن يكون الله أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها و رد عمله بسببها، أو يكون قد أصابته دميمة مثل الكبر والعجب والفخر والخُيّلاء والغش والبغض والحرص والأمل والحقد والحسد والضجر والجزع والهلع والطمع والجمع والمنع والجبن والجهل والكسل والبداء والجفاء واتّباع الهوى والازدراء والاستهزاء والتمني والترفع والحدة والسفه والطيش والمراء والتحكم والظلم والعداوة والمنازعة والمعاندة والمخالفة والمغالبة والمزاحمة والغيبة والبهتان والكذب والنميمة والتهويش[1]، وَ سوء الظن والمهاجرة واللؤم والوقاحة والغدر والخيانة والفجور والشّماتة وما إلى ذلك من الأمراض التي يجب على المريد معرفتها و مجانبتها والمجاهدة في تبديلها بأحسن منها.

و لكن لا يتأتى له ذلك إلاّ إذا أخذ بيده نحو سبيل النجاة شيخ مؤهل لذلك، لأنّ أهل الزاوية يعتقدون اعتقادا راسخا بأنّ مؤسستهم تقدم وظيفة نفسية تتمثل في أنّ الناس لا يستطيعون الوصول إلى نبذ تلك الصفات المذكورة آنفا والقضاء عليها والوصول إلى الذهول والإعجاب الشديد بالخالق المتعال بأنفسهم و لا بمحض إرادتهم.

إن كيان الزاوية ووجودها يحتمان حضور وسطاء يشرحون لأفراد المجتمع القواعد المثالية والقوانين التامة للتوحيد.

وإذا كان لابد من ذكر ملاحظة وجيهة في هذا السياق، فإنّنا نشير إلى أن الزاوية اكتسبت قيمتها واتخذت منزلتها وحصلت على مكانتها خارج العبادات الرسمية إذ لا وجود للوسيط في القواعد الدينية الإسلامية الرسمية.

1 الهوش بمعنى الجمع والخلط، و أمّا الهيش فهو الإكثار من الكلام (تاج العروس، ج4، ص 368)

إنّ نشوء فكرة الوسيط حَتَّمها دخول النقد وَالرأي المعاكس وكذلك نمو التصوف وإدراج الفلسفة مما جعل الناس يبحثون عن وسطاء أكفّاء يكشفون لهم عن خوالجهم ويطلعونهم عما يجول بخواطرهم وما يكتنف مشاعرهم وما يحسون به من آمال وآلام. ومن ثم أصبح الناس مرتبطين بشكل مطلق بوسيط أطلق عليه اسم "المعلم الروحي" الذي يخضع له كل فرد من أفراد الزاوية جسدا وروحا.

وإذا كان الأمر كذلك، فالزاوية منحت لمفهوم الطاعة دلالة متميزة ذلك أن طاعة المعلم أو"الشيخ" كثيرا ما سايرت عبادة الله سبحانه وتعالى، فليس الهدف إذا هو البحث عن التحام الروح مع الخالق، وإنما هو البحث عن تطابق كلي وبشكل مطلق مع إرادة هذا المربي الملهم ومع أفكاره سواء أكان صوفيا أو درويشا أو مرابطا.

إنّ شيخ الزاوية هو مديرها، وهو الممثل، والمفوض للإله في الأرض. ومن الطبيعي أنّ خضوع المريدين لهذا الإنسان يجعلهم ملكا له بالمعنى المطلق للكلمة لأنّ الله عز و جلّ هو الذي يأمر بلسان الشيخ. إنّ الزاوية تحتضن هذا الشخص المتصف بالبركة العالية، و لكن له طموحات شخصية كبيرة.

وَ الجدير بالإشارة أن مجموع البركة والورد وَ الذكر تمثل كلها ما يسمى بطريقة الزاوية، أي قاعدة الحياة التي تقوم عليها هذه المؤسسة، حيث أن المبادئ الأساسية لكل زاوية تقوم على ما يسمى بالوصية، وهي وثيقة يملكها شيخ الزاوية وبها يتحكم في زمام أمر زاويته ومريده والعاملين معه.

وكل شخص في زعمه إذا لم يخضع لسلطة شيخ روحي، فإنه يعتبر مرتدا لأنه لا يستطيع أن يصل إلى الطريق المستقيم دون دليل روحي ولو أوتي آلاف من الكتب الدينية، إنّ هذا المبدأ يبين بوضوح التأثير المطلق لشيخ الزاوية على مريديه، حيث يجوز له أن يأمرهم بأوامر متعددة، مختلفة، ومتنوعة، مع إدلاءهم له بالطاعة والرضى وحفظ السر حول ما يؤمرون به.

وبالإضافة إلى الروابط الروحية التي توحد الشيخ ومريديه، والزاوية الأم وفروعها، فإن الزاوية بصفة عامة تتطور دائما وفق المستجدات والظروف الاجتماعية والنفسية المتغيرة في البلاد التي تتواجد فيها وحسب التوجهات السياسية والاقتصادية لكل بلـــد.

فالمسلمون و لاسيما عندما كان شأن السلام في بلادهم يعرف توترات عديدة، كانوا يحسون بالضرورة في الاتحاد، والتجمع، وتلقي ركائز دينية، ومستنجدات، ومساعدات مادية، والحيازة على الثقة والأمن. وأصبحت الزوايا بذلك مراكز للاطمئنان النفسي والاجتماعي، بل كانت تستخدم كقواعد للاستغلال الفلاحي، وكقواعد للانطلاق والتبادل التجاري خاصة عند سكان الجنوب من خلال القوافل، وكذا بعض مناطق الشمال كتلمسان والتي كانت تعتبر بوابة تجارية تربط بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب.

ومن خلال هذا التأثير التجاري، والتبادل الاقتصادي الذي جلب ثقافات

متعددة، أثرت في الكثير على نفسية بعض الشيوخ الذين كانوا يمثلون فروعا للزاوية الأم، وأصبحوا يكونون زوايا مستقلة سياسيا واقتصاديا حسب التغيرات الثقافية والنفسية التي تؤثر في الشيخ أو المقدم، والذي يرقي بدون هوادة سلطته على الفرع الذي في غالب الأحيان ما أن يصبح زاوية مستقلة لها هي الأخرى فروع ذات مصالح وعلاقات دينية أو تجارية، ويكون الإخوان التابعون لها خاضعين لأوامره بدون نقاش.

وَ نسجل هنا بأن الزوايا بواسطة هذا التنظيم المتسلسل كانت في الماضي تمثل كل الاحتياجات الدينية والروحية للمسلمين المتعاطفين معها. وبطبيعة الحال ومهما كان الأمر، فإن الزوايا المتفرعة محافظة على الطريقة التي تنتهجها، فإنها تحرص على حماية الحياة النفسية والاجتماعية للمتعاطفين معها، مع الإبقاء على تبعيتها للسلالة الأصلية خدمة لعالمية الإسلام. وبهذه الصفة فإن أغلبية الزوايا تتحصل على خصوصيات ترتبط عموما بالمصالح المادية المباشرة للشيخ والإخوان الذين يتعاملون معه.

وممّا يجب الاهتمام به هو النتائج التي يتوصل إليها شيخ الزاوية أو المقدم على العوامل النفسية للفرد عندما يقدم له خدمات تعود عليه بفوائد صحية أو اجتماعية. فالسر الذي يتظاهر به الشيخ في معالجة العديد من الأمور، هو الأمر المشاع لدى عامة الناس، كالعلاج من بعض الأمراض مثلا لسعة الحشرات الضارة

(أفاعي، عقارب ...إلخ) أو الحل العاجل لبعض القضايا النفسية الخاصة كعُقم النساء أو الإشفاء من بعض العقد النفسية، تعتبر عاملا هاما لجعل الناس يحترمون الشيخ ويخضعون له لقدرته على تجاوز بعض الصعوبات التي لا يمكن تجاوزها أو معالجتها بصفة طبيعية، أو بطريقة عادية وبسيطة[1].

وتعتبر هذه الأمور من الوظائف المتعددة واللامتناهية لشيوخ الزاوية والتي لا حصر لها في قاموس الخدمات التي يمكن للزاوية أن تقدمها للأشخاص سواء أكانوا من التابعين المعتادين التوافد على هذه الأمور، أو من الأشخاص الملهمين الذين يركزون اهتمامهم لضبط المعرفة اللازمة والحصول على قواعد الأسرار المختلفة من شيوخهم بشأن تأدية وتقديم الحلول وَالعلاجات الكثيرة سواء لبسط التوازن النفسي عند الفرد والجماعة من الناحية النفسية الروحية، أو لِفَك الأزمة وَالعقدة النفسية الاجتماعية التي لم يجد لها في أغلب الأحيان الإنسان شفاءا طبيعيا أو علميا رغم تقدم العلوم ونمو الأفكار العقلية والواقعية.

ولا شكّ أنّ للطرق النابعة من التصوف الديني أثرا نفسيا بالغا في الهيكلة الجوهرية للزاوية، إذ أنّ الاعتقاد الصوفي لا يفصل الخالق عن العالم المخلوق خلافا للتعاليم القرآنية التي تؤمن إيمانا راسخا بفصل الخالق عن العالم المخلوق. ومن ثم فإنّ المريد، عَمَلاً بهذا المبدأ، و نتيجة للتخشع المبالغ فيه بواسطة الزهد

1 حوار مع أحد المريدين حامل سر بن عبد القادر بلقاسم من زاوية من زوايا منطقة تلمسان يوم 01/04/20 أثناء فعاليات ملتقى "المقري" بجامعة تلمسان سنة 2001.

(الرقص)، فإنّه ينشد مبدأ التوحيد الذي يرى بأنّ الله وحده هو الموجود، وهو كائن في كل شيء، و كل شيء كائن فيه. إنّ الكائنات منبثقة من ألوهيته، أمّا المادة فهي وهم و سراب و خداع للحواس. ومن أجل ذلك صار الإنسان مقيدا لا يمتلك أيّة حرية لأنّ كل أعماله محددة من قبل الخالق، فهو مجبور مسير لا مخير[1].

و لقد سبق الذكر بأنّ المريد يؤمن إيمانا راسخا في كل ما يصدر عن شيخه مما يؤثر في نفسه فيجعله يعيش في اطمئنان كامل و راحة بال تامة، بعيدا عن شواغل الدنيا و مباهجها، يناجي ربه في السر والعلن، و يكثر من التهاليل والأذكار، إلاّ أنّ وصول المريد إلى هذه الدرجة لا يتأتى إلا بعد المرور بمراحل متعددة يقهر فيها نفسه و يحارب ملذاته و شهواته.

وَ لكن أهم مرحلة يمر بها المريد تتم عبر طقوس مميزة يقوم أثناءها شيخ الزاوية بالبصق داخل فم المريد، وَذلك ليبلغه صفاء التقاليد و نقاوة العادات وَ براءة الأفعال وَ طهر الأفكار والإيمان والورع والتضحية، و إنكار الذات، وَهي فضائل ينشدها المريد و يصبو إليها في حياته اليومية، كما يرتدي المريد نسيجا يجعله محترما بين الناس الذين يُقدرونه وَيبجلونه، وَيكنّون له كل صفات الوقار والحشمة، كما يتحلّى بهيأة رصينة وَمتواضعة تجعله وكأنه الرجل الحائز على القوة والسلطة وَأهل النعمة الإلهية[2].

1 Oran : Cité berbère : J. Caznave ; Société de géograpie et d'archéologie d'Oran ; 29 Mai 1922 ; Imprimerie L. Fouqué ; Oran ; P. 137.

2 Essai sur l'Histoire de l'islam : Dozy Leyde; 1979; P. 146.

3- الوظيفة اللغوية

إنّ النشاط المكثف المتنوّع الذي تقوم به الزاوية في المجتمع جعلها تؤلّف قاموسا لغويا خاصا بها، إذ كثيرا ما تأخذ الألفاظ دلالات اصطلاحية على لسان شيوخ و مريدي الزاوية.

وقد حاولنا الوقوف عند هذه الألفاظ مبيّنين المعاني الجديدة أو الدلالات التي استحدثتها الزاوية لتمرير شؤونها و بثّ تعاليمها. وأهمّ هذه المصطلحات :

- **أسرار :**

السر في الإصلاح هو لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة. كما أنّ الروح محل المحبة والقلب محل المعرفة.

- **الاسم :**

عند العارفين هو ذكر الاسم المفرد، وهو الله. وهو سلطان الأسماء، وهو اسم الله الأعظم، فلا يزال المريد يذكره بلسانه و يمتزج به حتى يمتزج بلحمه وَ دمه وَ يسري أنواره في كلياته و جزئياته، فيتحد الذاكر والمذكور، فينتقل الذكر إلى القلب، ثمّ إلى الروح ثمّ إلى السر فحينئذ يخرس الإنسان و يحصل على محل الشهود والعيان فيصير ذكر اللسان ذنبا من الذنوب عند مشاهدة علاّم الغيوب، حسنات الأبرار، سيّئات المقربين.

- **اتّحاد :**

أي رؤية الإله عن طريق القضاء على الفردانية، وقهر النفس.

- **الإنابة :**

هي صفة الأولياء الكرام والمقربين لقوله تعالى "وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ".

- **الأوْبَة :**

هي صفة الأنبياء المرسلين لقوله تعالى :" نعم العبد إنّه أواب"

- **بركة :**

نعمة إلاهية وَموهبة يمنحها الله سبحانه وَتعالى لبعض الأشخاص، وَيتوارثها الأبناء عن الآباء و يمكن للوليّ أن يمنحها لشخص من محيطه والذي تبدو عليه صفات الوقارة وَالحياء، وَالاحترام، والتواضع، والعلم.

- **البشرى :**

تكون لمن يمتثل للأوامر و يجتنب النواهي دنيا وَ أخرى

- **البصيرة :**

هي قوة للقلب المنور بنور القدس، يرى بها حقائق الأشياء و يواظبها، وهي بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء و ظواهرها.

- **التسبيح :**

أصل صيغ التسبيح (سبحان الله) التي نحتت منها السبحة المستعملة عند الصوفية، وَ وقع التعرف في صيغها بالإضمار؛ فقيل : سبحانك و سبحانه و سبحان الذي خلق السماوات والأرض.

- **التقوى :**

والاتقاء بمعنى وقى يقي، وهي الوقاية، والوقاية هو ما يحول بين الإنسان وما يكرهه.

- **التوبة :**

هي الرجوع عن أفعال مذمومة في الشرع إلى أفعال محمودة فيه، ولا يصح للمريد أي مقام إلاّ بعد تصحيح مقام التربية. والتوبة كذلك رقصة يظهر فيها الراقص ندمه و حسرته و يعلل عودته إلى سبيل الله عز و جلّ.

- **تويزة :**

هي أسلوب حياة يتضامن فيها الأفراد لإنجاح عمل ما بصفة جماعية.

- **التيقظ :**

هو الانتباه عن الغفلة و طلب طريق الرشد.

- **الثمرة :**

هي أسرار الذات العالية و حكمة على قلوب العارفين.

- **جدبة :**

وهي رقصة تنتهي إلى نشوة حماسية وافتتان.

- **الحال :**

سمي كذلك عند الصوفية و أهل الزاوية لتحوله وانتقاله. فالحال لا يدوم

لصاحبه وإنّما هو ممطر على القلوب غيث المعارف و علم الغيوب والأسرار والكشوفات والأنوار.

- **الحب :**

أو المحبة لله عزّ وجلّ، والحب عام و خاص، فالعالم يفسر بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات وهو لكل المؤمنين، وهذا الحب من المقامات، وقد عُدوه من مقدمات اليقين، وهو الحب العام. أمّا الحب الخاص، فهو حب الذات عن مطالعة الروح.

- **الحجاب :**

هو الاحتجاب بالخلق وَ بقاء رسم الخليفة بحالها و شهود قيام الخلق بالحق من غير احتجاب بأحدهما عن الآخر.

- **الحقيقة :**

من حق الشيء إذا ثبت؛ أي لا يحتمل خلافه، والحقيقة في اصطلاح الطائفة (سلب آثار أوصافك عنه بأنّه الفاعل بك فيك منك لا أنت).

- **الحضرة :**

هي دائرة الولاية و محل التقديس أي التنزه المطلق حيث ينزه العبد ربه أتم التنزه به بأن يعظمه عن أن يغفل عنه أو ينساه أو يعصيه فيكون ذلك تنزيها للعبد، يحفظه عن المعاصي والغفلات والشهوات. وفي اصطلاح الزوايا، هي رقصة حماسية تردد أثناءها بعض الأذكار الخاصة عند درقاوة.

- **الحضور :**

أي حضور القلب، وهو رجوع العبد إلى أحوال نفسه وأحوال الخلق.

- **الحيرة :**

وهي الرقصة التي تنتهي بتخضير كامل و دهشة ذهولية خاصة عند عيساوة بالمغرب.

- **الخلوة :**

وهي عبارة عن بناية تحتضن ضريح ولي صالح أو عائلة صالحة مثل خلوة الشالة الموجودة في الرباط بالمغرب، حيث دفن بين جدرانها الملوك المرينيون[1]. و قد شيّدت في أعالي جبل كما تتخذ بيتا في مقبرة كما كان الحال بالنسبة للشيخ محرز بن خلف[2]. وهي كذلك الانعزال الكلّي للتأمّل والتفكير وأثناءها يتضرّع الشيخ أو المريد لله سبحانه وتعالى، و يرجو التقرّب إليه.

- **الخمرة :**

وهو مصطلح ورد كثيرا في شعر المتصوفة من أمثال أبي مدين شعيب دفين تلمسان، و تمثّل الوصول إلى الكمال والتمام.

- **ذكر :**

هو الوسيلة المعصومة التي يتعالى بها أهل الزاوية إلى الذهول الأسمى،

---

1 ينظر :- La mosquée : Lucien Golvin; Institut supérieur d'Alger; Paris; palais d'hivers; 1960; p. 21.

2 Manaquib d'Abû Ishaq-Al Jabanyâni : Hady Roger Idris ; Presse Universitaire de France ; Paris ; 1959 ; P. 158.

والاتّحاد مع ذات الله. وهو –كما يقولون– منشور الولاية، و لابد منه في البداية والنهاية، وهو باب عظيم لدخول على الله.

– زاوية :

لغويا الركن، و قد اتّخذت هذه اللفظة معنى الحرم داخل المسجد المستعمل للصلاة، وكلّ مجموعة تابعة لشيخ تمتلك زاوية خاصة بها.

– الزاوية الأم :

هي الزاوية التي يوجد بها ضريح مؤسس الطريقة.

– الزاوية الفرع :

هي زاوية تابعة للزاوية الأم، و لكن قد تأخذ أهمية كبرى بالنظر إلى انتشار الطريقة التي تنتمي إليها. و يمكن لها أن تستقل عن الزاوية الأم، فتتخذ صفة الزاوية الأم هي الأخرى.

– الزنديق :

شرعا هو من يُظْهر الإسلام و يخفي الكفر، كمن يكذب بالبعث أو ينكر رسالة النبي (صلعم) أو لا يؤمن بالقرآن أنّه كلام الله تعالى و لا يستطيع أن يجهر بذلك أو يصرح به لخوفه أو ضعفه، وفي اصطلاحهم المنافق ذئب الطريقة.

– الزهد :

هو دافع قوي لجهاد النفس والشيطان. قال الإمام الغزالي :" الزهد في

الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ...". وهو عند أهل التصوف سلوك عما يشغل سرهم عن الحق و تكبر على كل شيء غير الحق، و عبادتهم إنّما هي تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة حتى يتجهوا بكليتهم إلى الله لا يعوقهم عن ذلك خيال فاسد، وَ وهمٌ ضال، و شهرة جامعة.

- زهدة :

وهي رقصة تتميز بالتقشف والتزهد و بحركات حماسية مملوءة بالحمية والورع ممّا يجعل صاحبها يفقد وعيه و يخرج عن عالمه الدنيوي.

- سبحة :

وسيلة هامة تساعد المسلم على الاتّصال بربّه و تكون له تذكيرا على مداومة الذكر والمحافظة على ورده، و حزبه الذي أذِنَ له فيه شيخه.

- سكرة :

وهي الأنس بالله لا يحويه باطل، وهي -كما يقولون- من أثر خمر لذته و شهواته.

- سنوسية :

طريقة أسّسها محمد بن سي علي بن السنوسي بالقرب من مستغانم، وهي تابعة للمذهب المالكي.

- شريف :

المراد بالشرف، شرف الانتساب إلى آل البيت.

- شوق :

هو في اصطلاح الصوفية يعني نزاع القلب إلى لقاء المحبوب، وهو ثمرة الحب. فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه.

- شيخ :

و هو مدير الزاوية، الممثل والمفوض للإله في الأرض. و هو كذلك السلطة المطلقة المسيّرة للزاوية، و يجب على كلّ مريد أو تابع أن يخضع له خضوعا تاما.

- طريق :

هي في – اصطلاح الصوفية– مراسم الله تعالى و أحكامه التكليفية المشروعة التي لا رخصة فيها.

- طريقة :

هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات. وهي كذلك السبيل إلى الاستقامة والصلاح، وهي مجموعة من التعاليم التي يحافظ عليها المريد ولا ينصرف عنها.

- **عمارة :**

هو الاهتزاز المشتق من هزّ، أي هز الشيء وبالشيء، حركه و يعني في اصطلاح أهل الزوايا نشاط قلب الذاكر و تحرك عواطفه و ارتياح عقله و اهتزاز جسمه عند سماع ذكر الله.

- **فقير :**

الفقير في اصطلاح أهل الزاوية هو المنتبه لسلوك الطريق أو الغافل عنها.

- **فكرة :**

عند العارفين، هي سر القلب في ميادين الأغيار.

- **قطب :**

عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه.

- **قلب :**

لقد سمي كذلك لكثرة تقلبه، وهو يطلق على الشعور بالعطف والحنان والرحمة والمحبة و غيرها من الأحوال الوجدانية. وقد يطلق على لب الشيء و باطنه. كما يعبر به عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة. و تكون وظيفة إدراك الحقائق العقلية بطريقة الحس والإلمام لا طريقة القياس

والاستدلال.

- **كرامة :**

نعمة في شكل سرّ يكرم الله بها الأولياء الصالحين. والكرامة يجوز وقوعها في حياة الأولياء و بعد مماتهم.

- **مذاكرة :**

هي العلم الذي لا يصح عمل إلاّ به، وهو كما يقولون إمام العمل. وَالعمل تابعه مع تقديم علم العقائد ثم العبادات ثم حكم ما يريد الدخول فيه من المعاملات؛ بحيث لا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه.

- **مرتد :**

وهو كلّ شخص لم يخضع لسلطة شيخ أو خالف أوامره بعدما كان مريدا عنده.

- **مكاشفة :**

هو علم الباطن و علم الصديقين والمقربين، وهو نور يظهر في القلب عند تطهيره و تزكيته من صفاته المذمومة و ينكشف من ذلك النور أمور كثيرة منها المعرفة الحقيقية بذات الله و صفات أفعاله و حكمه في خلق الدنيا والآخرة و وجه ترتيبه الآخرة على الدنيا؛ وَ معنى النبوة والوحي، إلخ...

- **نشرة :**

هي لقاء أساسي و رسمي، ينتهي بمراسيم دينية.

- **نظرة :**

أي النظرة بعين الحقيقة.

- **هبرية :**

وهي طريقة أصلها من الشاذلية، وتنتسب إلى الشيخ الهبري الذي واصل العمل بها حسب قواعدها المعروفة، وهي مشهورة في الغرب الجزائري.

- **وصية :**

وهي وثيقة يملكها شيخ الزاوية، وبها يتحكّم في زمام الأمر وتسيير الزاوية، ومريديه، والعاملين معه.

- **ولـــي :**

وجمعها أولياء. وهو العارف بالله وبصفاته حسب الإمكان، المواظب على الطاعة، المجتنب للمعاصي، أو الذي لا يرتكب معصية بدون توبة.

الخـــاتمة

لقد تناولنا في هذا البحث موضوعا يكاد يتصف بالجدة لندرة الدراسات العلمية حوله، وممّا لاشكّ فيه أنّ الزاوية تلعب دورا هاما في الأوساط الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية وفي عامة مناحي الحياة.

لم أقصد دراسة زاوية بعينها، ولم أجنح إلى معاينة ما يجري في زاوية بذاتها، وإنّما هدفت من خلال هذه الدراسة إلى الولوج داخل هذه المؤسسة الروحية لاضطلع على سيرها من الداخل و هرمها المؤلف لها، وتعاليمها، ومعاملاتها، واتّصالها بمؤسسات دينية وثقافية واجتماعية أخرى، فتوصل البحث بنا إلى أنّ الزاوية وليدة الاتجاه الصوفي الذي كان يسود المجتمعات الإسلامية منذ القديم. فقد أمدّها بتعاليم دينية تمسك بها شيوخ الزوايا الذين قاموا بالحفاظ عليها ونشرها في الأوساط الاجتماعية المختلفة.

وَإذا كان التصوّف في المغرب العربي قد خلا من الرؤى الفلسفية التي ميّزت التصوف في المشرق العربي، فإنّ هذا التصوّف قد سكن في نفوس الأفراد واستقرّ في أفئدة الجماعات التي وجدت فيه روح التوازن والاطمئنان النفسي والاجتماعي.

كما ظهر لنا من خلال البحث أنّ الزوايا تختلف اختلافا نسبيا في أعمالها اليومية، فهناك زاوية تستأثر بإيجاد مناصب عمل لمريديها، وأخرى تعمل على المحافظة على الجوانب الصحية لتابعيها، وثالثة تسهر على تربية النشء، وتوجيهه، وتعليمه عن طريق احترام تعاليمها الروحية. وهناك زوايا أخرى قد استأثرت

بالمحافظة على تقاليد و صيانة الدين. كما احتضنت بين ظهرانها تعاليم هذا الدين الحنيف وجعلتها علمًا وقاعدة للاتّصال مع العالم، فحوّلتها إلى بذور زرعت بها المجتمع كله، ممّا جعلها تنتج تراثا ثقافيا زاخرا أغلبه لا يزال يبحث عما يقوم بدرسه والتنقيب حوله.

و قد بيّن لنا البحث أن واليا صالحا يسيطر سيطرة كاملة على الزاوية وعلى مرافقها و يدير شؤونها عن طريق "المقدم" الذي تتجلى فيه تلك القوة المسيطرة.

كما كشفت لنا الدراسة أنّ فكرة زيارة أضرحة الأولياء و زيارة الزوايا شعبية و منتشرة عبر دول المغرب العربي كله.

ومن خلال معاينتنا الميدانية، وعلى الرغم من كثرة الزوايا التي أحصيناها خاصة في غرب وفي الجنوب الغربي من الوطن، فإنّ عدد الزوايا قد تقلص بعدد كبير، ويعود ذلك إلى عوامل متعدّدة، منها الانتشار الحضاري المعاصر في القرى وَالمدن التي عرفت نموّا قويا للزوايا في عهد من العصور، وكذا انتشار المؤسسات الدينية الرسمية، واختيار التلاميذ والطلبة التوجّه إلى المدارس، و الكليات إلى غير ذلك من العوامل. ورغم ذلك تبقى كثير من الزاويا منبرا للعلم، والتربية، والتضامن الاجتماعي، ومؤسسة متزنة تستغل في المجتمعات الإسلامية عند الضرورة.

إنّ هذه الدراسة محاولة لتحليل البنية الثقافية للزاوية، و قد بذلنا ما استطعنا من جهد لمعالجة إشكاليتها، و إنّنا ندعو الباحثين إلى مواصلة هذا الجهد في

المجالات المختلفة والمتصلة بالزاوية و خاصة فيما يخص العلاقات التدرجية بين الأفراد الممثلين للزاوية. و كذلك التعمق في مصادر التعاليم والمبادئ التي تسير عليها كلّ زاوية.

الملحق رقم 1

الطرق الدينية والزوايا

الطرق الدينية :

أكثر الطرق انتشارا في العالم في الوقت الحاضر، التي عملت علـــى نشـــأة الزاوية هي :

1- القادرية: بالعراق، وتركـــيا، والهند والتركستان ،والصين والسودان والمغرب.

2- النقشبندية: وتوجد بالتركستان،والصين ، وتوركيا والهند وماليزيا .

3- الشاذلية: وتوجد بالمغرب العربي وسوريا.

4- الباكتاشية : وتوجد بتركيا و ألبانيا.

5- التيجانية : و توجد بالمغرب العربي و تشاد.

6- التنوسية : وتوجد بالصحراء والحجاز.

7- الشطارية : وتوجد بالهند وماليزيا.

وقد بذلت محاولات عديدة لإقامة اتّحادِيَيْن الجماعات الإخوانية فـــي العهـــد الحميدي، وترجمت هذه المحاولات بسلسلة عجيبة من المراتب تجمع في وحدة بين الإبدال وقطب الوقت وبين محفل (مجلس) دائم مؤلف من الشفعاء الأربعة الكونيين: الرفاعي رئيسا، والجـــيلاني والـــبدوي، والدسوقي.

أمّا قائمة الطرق الإسلامية فتتلخّص فيما يأتي :

8- الإباحية : وهي زندقة، و الاتحادية و هي زندقة كذلك.

9- الأحمدية : وهي طرقة مصرية ولها عدة فروع :

- الشناوية و المرازقة و الكناسية و الأنبابية و الحمودية و المنائفية و السلامية و الحلبية و الزاهدية و الشعيبية و الشقيانية و العربية و السطوحية و البندارية و المسلمية و و البيومية.

10- الإدريسية : وهي فرع من الطريقة الخاضرية. (القرن التاسع عشر)

11- الأدهمية : ولها إسناد تركي سوري (القرن الخامس عشر)

12- الإسماعيلية : وهي طريقة نوبية في كردفان (القرن التاسع عشر)

13- الإشراقية : وهي مدرسة السهروردة الحلبي في العاقدية.

14- الأشرفية : وهي فرع تركي من الطريقة القادرية

15- الواحدية: وهي فرع تركي من الطريقةالخلوتية.

16- الإعتشاشية : وهي فرع خراساني من الطريقة الكبراوية.

17- الأمير غنية : وهي فرع نوبي من الطريقة الكبراوية.

18- الأمم سنانية : وهي طريقة تركية .

19- الأوينسية : ولها إسناد تركي (القرن السادس عشر) وهي تنسب لأحد الصحابة.

20- البابانية : وهي طريقة تركية في إدرنة

21- البحورية : ولم تعرف لحد الآن حقيقتها .

22- البدوية : وهي نفسه الأحمدية المذكورة أعلاه .

23- البرهانية : وهي طريقة مصرية ولها فرعان، وتنسب لإبراهيم الدسوقي المتوفى سنة 1277 :

24- البسطامية : ولها إسناد تركي (القرن الخامس عشر)

25- البكتاشية : وهي طريقة أناضولية قبل سنة 1326، بلقانية وهي فرع الباني مستقل ذاتيا منذ سنة 1922.

26- البكرية : وهي اسم يطلق أحيانا على بيت البكرى (شيوخ الصوفية في القاهرة منذ القرن السادس عشر)، وهي فرع سوري مصري من الطريقة الشاذلية.

27- البكائية : وهي فرع سوداني من الطريقة القادرية، و لها فرعان هما :

* الفضلبة و الآل سيدية .

28- البناوة : وهي فرع من القادرية (القرن التاسع عشر)

29- البوعلية : وهي فرع جزائري مصري من الطريقة القادرية (لقرن التاسع عشر)

30- البونوحية : وهي طريقة صغيرة في جنوب مراكش

31- البيبرية : وهي طريقة صغيرة في قيليقية

32- البيرحاجات : وهي طريقة أفغانية يقول أتباعها إنّهم ينتمون إلى الأنصاري الهروي المتوفى سنة 1088 م.

33- البيرمية : وهي فرع تركي من الطريقة الصفوية (أنقرة) وهي تنقسم إلى فروع صغرى وهي : الحمزاوية والشيخية والخواجة.

34- البيومية : وهي طريقة مصرية من الأحمدية.

35- التبائية : وهي طريقة تونسية.(القرن التاسع عشر) .

36- التيجانية : وهي طريقة جزائرية مراكشية، وقد انتشرت من تماسين وعين مهدي إلى السودان شرقيه وغربيه.

37- التشتتية : وهي طريقة هندية أفغانية.

38- التلقينية : وتعتبر من الزندقة.

39- التهامية : وتعتبر من الطيبة .

40- الجباوية : و تعتبر من السعدية.

41- الجراحية : وهي فرع تركي من الطريقة الخلوتية.

42- الجزولية : وهي الشاذلية بعد أن تناولها المراكشيون بالإصلاح ولها فروع هي : الدرقاوة والحمادشة والعيسوية والشرقاوة.

43- الجلالة : و هي اسم مراكشي للطريقة القادرية.

44- الجمالية : وهي فرع فارسي من السهروردية (إردستاني المتوفى في القرن الخامس عشر).

45- الجلوتية : وهي فرع تركي من الطريقة الصفوية. ولها فروع وهي :

الهامشية و الروشنية و الفنائية والهدائية.

46- الجندية : وهي مدرسة بغدادية في العقائد، تطورت في طريقة صوفية في القرن الحادي عشر، ونشأ منها طرق : الخواجكان والكبراوية والقادرية.

47- الحاتمية : وهي مدرسة في العقائد عند ابن عربي المتوفى سنة 1240 م.

48- الحبيبة : وهي فرع من الشاذلية في تافيلالت (المغرب).

49- الحدادية : لم تعرف حقيقتها بعد.

50- الحروفية : وتعتبر من الزندقة.

51- الحريرية : وهي فرع حوراني من الرفاعية.

52- الحفنونية : وهي فرع مصري من الخلوتية.

53- الحكيمية : وهي مدرسة في العقائد عند حكيم الترميذي (توفي سنة 898 م)

54- الحلاجية : وهي مدرسة في العقائد عند الحسين بن منصور الحلاج توفي سنة 922 م.

55- الحلمانية : وهي فرقة حلولية من القرن العاشر.

56- الحلولية : وهي من الزندقة.

57- الحمادشة : وهي فرع مراكشي من الطريقة الجزولية في زرهون (القرن الثامن عشر)وله فروع هي : الدغوغية و الصداقية و الرياحية والقاسمية في كل من مكناس و سلا.

58- الحمزاوية : وهي مزيج من البيدمية و الملامية.

59- الحنصلية : وهي طريقة صغيرة وهرانية مراكشية.

60- الحيدرية : وهي فرع فارسي من القلندرية (القرن الثالث عشر)

61- الخافرية : وهي طريقة مراكشية، ومنها استقت الأمير غنيـــة، والإدريســـية، و السنوسية .

62 - الحزازية : وهي مدرسة في العقائد عند أبي سعيد الحزاز.(القرن الخـــامس عشر).

63- الخفيفية : وهي مدرسة في العقائد عند ابن خفيف المتوفي سنة 982 م

64- الخفية : وهي لقب النقشبندية في الصين التركستان (القرن التاسع عشر).

65- الخلوتية : وهي فرع من السهروردية ظهر في خراسان (ظهير الدين المتوفى سنة 1397) وانتشر حتى بلغ تركية، وله فروع كثيرة : ففي الأناضول كان لهـــا : فرع الجراحية و الإغتباشية و العشاقية و النيارية و السنبلية والشمسية و الكلشـــنية و الشجاعية.

وفي مصر كان لها : الضيفية و الحفنوية والسباعية والصـــاوية الدريدريـــة والمغازية.

وفي النوبة و الحجاز و الصومال كان لها : الصالحية.

وفي بلاد القبائل كان لها : الرحمانية.

66- الخليلية : طريقة تونسية صغيرة (القرن التاسع عشر).

67- الخموسية : وهي طريقة تونسية (القرن التاسع عشر).

68- الخواجكان : وهي طريقة فارسية انحدرت من المدرسة الجنيدية و انتشـــرت في التركستان.

69- الخواطرية : وهي فرع حجازي من الطريقة المدنية.

70- الدرديرية : وهي فرع مصري من الطريقة الخلوتية.

71- الدرقاوة : وهي فرع جزائري مراكشي من الجزولية، وله عدة فروع هـــي : البوزدية و الكتانية و الحراقية والعلوية.

72- الدهرية : وهي طريقة يمنية(القرن الخامس عشر).

73- الذهبية : وهو الاسم الفارسي للطريقة الكبرواوية.

74- الرحالية : وهي طريقة مشعبدي مراكش (القرن السادس عشر)

75- الرحمانية : وهي فرع من الخلوتية في بلاد القبائل (1793) .

76- الرسولشاهية : وهي طريقة هندية في كحرات (القرن التاسع عشر).

77- الرشيدية : وهي طريقة جزائرية قامت بعد الانشقاق عن اليوفية (القرن التاسع عشر).

78- الرفاعية : وهي طريقة في جنوب العراق. انتشرت من مركزها في البصـــرة إلى دمشق وإستانبول، وفروعها السورية هي : الريرية والسعدية والسيادية.

79- الركنية : فرع بغدادي من الكبراوية.

80- الروشنية : فرع من الخلوتية في تركية والقاهرة.

81- الزروقية : فرع من الطريقة الشادلية في فاس.

82- الزيانية : وهي فرع مغربي من الشاذلية (القرن التاسع عشر).

83- الزينية : وهي فرع تركي من السهرودية .

84- الساسانية : وهي رباط أرباب الحرف في سوريا والأناضول القرن الثاني عشر القرن السادس عشر).

85- السالمية : وهي السهلية بمعناها الأول.

86- السبعينية : وهي مدرسة في العقائد وطريقة ضالة عند ابن سبعين (توفي سنة1268 م).

87- السعدية : وهي فرع سوري من الرفاعية، وله فروع هي : عبد السلامة و دابو الوفئية.

88- السقطية : ولها إسناد تركي (القرن السادس عشر).

89- السلامية : وهي من العروسية.

90- السلطانية : وهي طريقة تركستانية (القرن التاسع عشر).

91- السمانية : وهي فرع مصري من الطريقة الشاذلية (القرن التاسع عشر).

92- السنبلية : وهي فرع تركي من الخلوتية.

93- السنان أمية : وهي طريقة أمية.

94- السناسية : وهي طريقة تونسية صغيرة (القرن التاسع عشر).

95- السنوسية: وهي طريقة عسكرية انحدرت من الخاضرية.

96- السهرودية : وهي طريقة بغدادية أسسها عبد القادر السهروري توفي سنة 1167 م وَ عمر السهروري توفي سنة 1234 م.

وقد عرفت بالصديقية أتباع الخليفة أبي بكر، قامت في أفغانستان، وفي الهند، ولها فروع وهي : الجلالية والجمالية والخلوتية والروستنية والصفوية والزينية.

97- السهلية : وهي مدرسة في العقائد أسسها سهل التستري المتوفى سنة 896، وقد اصطنع اسمها في القرن السادس عشر.

98- السهيلية : فرع جزائري من الشاذلية (القرن التاسع عشر).

99- السيادية : وهي مدرسة في العقائد من القرن العاشر.

100- الشاذلية : وهي طريقة أسسها أبومدين التلمساني المتوفى سنة 1197م، وَعلي الشاذلي التونسي المتوفى سنة 1256، وفروعها المغربية هي : الغزية و الحبيبية و الكرزازية و الناصرية و الشيخية و السهيلية واليوسفية و الزروقية و الزيانية.

و فروعها المصرية هي : البكرية و الخواطرية و الوفائية و الجوهرية و المكية والهاشمية و السمانية والعفيفية والقاسمية والعروسية والهندوشية و القاووقجية.

ولها فروع في إسطامبول ورومانيا : وفي النوبة وفي جزائر قمر.

101- الشاهمدارية : وهي من المدارية.

102- الشرقاوة : وهي فرع مراكشي من الجزولية.

103- الشرقاوية : وهي فرع مصري من الخلوتية (القرن الثامن عشر).

104- الشطارية : وهي طريقة هندية.

105- الشعبانية : وهي فرع تركي من الخلوتية.

106- الشمسية : وهي فرع تركي من الخلوتية.

107- الشودية : وهي طريقة أناضولية ضالة من القرن الثاني عشر وتقوم على السبعينية.

108- الشيخية : وهو اسم أطلق على شاذلية أولاد سيدي الشيخ في إقليم البيض بالجزائر.

109- الصفوية : فرع آذرى من الطريقة السهرورية في إردبيل ومنه نشأت القزلباشية، والبيت الصفوى الفارسي، وكثير من الطرق التركية.

110- الصديقية : وهي ترد إلى الخليفة أبي بكر وضعها ابن عطاء الله في القرن الثالث عشر.

111- الطالبية : وهي طريقة مراكشية صغيرة في سلا (القرن التاسع عشر).

112- الطيبية : وهي فرع مراكشي من الجزولية في وزّان.

113- الطيفورية : وهي مدرسة في العقائد أقامها أستاذى و خرقاني في القرن الحادي عشر، وهي تنتسب إلى أبي يزيد طيفور البسطامي توفي سنة 877 م.

114- العشقية : وهي زندقة.

115- العرابية : وهي فرع من القادرية(القرن السادس عشر).

116- العروسية : وهي فرع طرابلسي من القادرية (القرن التاسع عشر).

117- العزوزية : وهي طريقة تونسية صغيرة (القرن التاسع عشر).

118- العشاقية : وهي فرع تركي من الخلوتية.

119- العشيقية : وهي فرع هندي من الطريقة الشطارية.

120- العلوانية : وهي إسناد تركي من القرن السادس عشر، ويرد هذا الفرع إلى ولي من جدة من أهل القرن الثامن.

121- العمارية : وهي فرع تونسي جزائري من القادرية .(القرن التاسع عشر) .

122- العَلْوِية : وهي فرع جزائري من الدرقاوة بمستغانم يسمّى بن علوية منذ 919م.

123- العَلَوِيَة : وترد إلى الخليفة على بن أبي طالب.

124- العوامرية : وهي فرع تونسي من الطريقة العيسوية (القرن التاسع عشر).

125- العيدروسية: وهي فرع يمني من الطريقة الكبراوية (القرن الخامس عشر) .

126- العيسوية : وهي فرع مراكشي من الجزولية في مكناس (1564 م).

127- الغازية : وهي فرع من الشادلية في جنوبي مراكش.

128- الغزالية : وهي مدرسة في العقائد عند الغزالي (111 م).

129- الغوثية : وهي فرع هندي من الشطارية (الغوث المتوفى سنة 1526) .

130- الفردوسية : وهي اسم هندي للكبراوية.

131- القادرية : وهي طريقة بغدادية نشأت من مدرسة الجنيدية (عبد القادر الجيلاني المتوفي سنة 1122 م) ولها فروع كثيرة :

ففي اليمن والصومال لها : اليافعية (القرن الخامس عشر) والمشارعية والعرابية.

وفي الهند لها الفروع التالية : البناوة والكرزمز.

وفي الأناضول لها الفروع التالية : الأشرفية والهندية والخلوصية والنبلسية والرومية والوصلتية.

و في مصر لها الفروع التالية : الفرضية والقاسمية.

و في المغرب لها الفروع التالية : العمارية والعروسية والبوعلية والجلالة.

وفي السودان لها فرع يسمى : البكائية.

132- القرائية : وهي طريقة تونسية صغيرة (القرن التاسع عشر).

133- القيشيرية : وترد إلى القيشيري المتوفي سنة 1074 م.

134- : وهي مدرسة في العقائد من القرن التاسع عشر.

135- القلندرية : وهي طريقة ضالة قامت في فارس (ساوجي المتوفي سنة 161م، و انتشرت في سورية والهند في القرن الرابع عشر و القرن السادس عشر.

136- القونياوية : وهي مدرسة في العقائد عند صدر الرومي المتوفي سنة 1673م، وقد انبثقت من الحاتمية.

137- الكبراوية : وهي طريقة خراساينة انبثقت من مدرسة الجنيدية (نجم كبير المتوفي سنة 1661 م وفروعها هي : العيدروسية والهمدانية والإغتشاشية والنور نجشية والنورية والركية.

138- الكازرونية : وهي فرع فارسي انبثق من مدرسة الخفيفية في العقائد بيتراز وتوفي سنة 1034 م.

139- الكرزازية : وهي فرع من الشاذلية في تافيلالت (القرن التاسع عشر) .

140- الكرزمر : وهي فرع هندي من القادرية.

141- الكلشنية : وهي المسماة الوشنية.

142- المنتولية : وهي طريقة مصرية صغيرة.

143- المحاسبية : وهي مدرسة في العقائد عند الحرث المحاسبي توفي سنة 859.

144- المحمدية : وهي إسناد تعبدي يرد إلى النبي بلا واسطة، استعمله في القرن السادس عشر علي الخواص والشعراني، وقد استعمل أيضا فيما يتصل بتلاوة دلائل الجزولي.

145- مدارية : وهي طريقة هندية ضالة.

146- المدنية : وهي الاسم الأول للشاذلية.

147- العرادية : وهي طريقة تركية باستانبول .

148- المرازقة : وهي فرع من الأحمدية القرن الرابع عشر .

149- المشارعية : وهي فرع يمني من القادية (القرن الخامس عشر).

150- المشيشية : وهي فرقة الولي المراكشي ابن مشيش المتوفي سنة 1226 م، وخلط بينهم وبين الشاذلية ثم أعيد تنظيمهم في القرن السادس عشر.

151- المصرية : وهي النيازية.

152- المطاوعة : وهي الأحمدية.

153- المغربية : يمكن القول بأن أتباعها هم مريدو الشاعر الفارسي المغربي المتوفى سنة 1406 م.

154- الملامتية : مدرسة خراسانية في العقائد من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر، وكانوا ضد الصوفية في العراق.

155- الملامية : وتسمى الحمزاوية و هو فرع من الطريقة البيرمية في تركية .

156- المنصورية : وتسمى الحلاجية.

157- المولودية : وهي طريقة أناضولية ترأسها جلال الدين الرومي المتوفى سنة 1373 في قونية . ولها فرعان هما : البوستنشينية والإرشادية.

158- الناصرية : وهو فرع مراكشي من الشاذلية في تمكروت (القرن السابع عشر، ويتفرع منه فرع آخر تونسي يسمى الشبية.

159- النبوية : وهو رباط من أرباب الحرف في سورية في القرن الثاني عشر.

160- النعمتا إلهية : وهي الطريقة الوحيدة الشيعية الفارسية من القادرية اليافعية في كرمان.

161- النقشبندية : وهي طريقة تركستانية يزعم أتباعها أنها انبثقت من المدرسة الطيفورية، ولها فروع في الصين وتركستان، وقازان، وتركية والهند، وجاوة، أسسها بهاء الدين المتوفى سنة 1388 م.

162- النقشبندية : وسميت الخالدية بعد أن تناولها الترك بالإصلاح في القرن التاسع عشر.

163- النور بخشية : و هو فرع خراساني من الكبراوية مؤسسها محمد نور بخيش المتوفى سنة 1465 م .

164- النور الدينية : وتسمى الجراحية.

165- النورية : وهي مدرسة في العقائد عند نورى المتوفى سنة 907 .

166- النيازية : وهو فرع تركي من الخلوتية.

167- الهدادية : لم تعرف حقيقتها.

168- الهداوة : طريقة ضالة مراكشية في تكزرت نشأت في القرن التاسع عشر.

169- الهمذانية : وهو فرع كشميري من الكبراوية، أسسها على همذان المتـوفى سنة 1385.

170- الوارث عليشاهية: وهي طريقة هندية تأسست في أواخر القرن التاسع عشر.

171- الوصولية : وهي زندقة.

172- الوفائية: وهي حركة إصلاح سوري مصري للشاذلية.

173- اليسوية: وهي شعبة من الخواجكان في التركستان.

174- اليوسفية : وهي فرع من الشاذلية المغربية في مليانة تأسست فـي القـرن السادس عشر.

175- اليونسية : وهو فرع ضال سوري.

الملحق رقم 2

الزوايا وَ نشاطاتها في صور

1958 م الصف السادس

صورة تلاميذ مدرسة الفتح بالمدينة المنورة سنة 1933

الزاوية الماسنرية

الزيارة العاصفورية أثناء

احتفال بيوم المولد النبوي الشريف سنة 1999م

أسماء أصحاب الصورة الملتقطة في سنة 1948:

اجتماع أهل الطرق بمناسبة عودة الشيخ أحمد بن يلس من بلاد الشام سنة 1948 (و هم من اليمين إلى اليسار) :

1- الطفلان الجالسان : العلوي بن السيد و أخوه نور الدين بن السيد.

2- الجالسون في الصف الأمامي : أبو مدين بن شعلي، الحاج بلقاسم بن السيد، الحاج محمد العشعاشي، الحاج أحمد باغلي، محمد الذيب، سي عكاشة بلحضري، الحاج الوضاح بختي، الغوتي بسعود، بلحاج "الشامي"، الحاج أحمد صالح، مصطفى الذيب، محمد بودغن اسطنبولي، الحاج محمد قاروزان.

3- الجالسون في الصف الثاني : الحاج محمد بغدادلي، سي قدور بوعياد، محمد بن كبير، حسين الراشدي، عبد الرحمان قهواجي، مصطفى بن يلس، الحاج أحمد بن يلس (العالم المحتفل بعودته من بلاد الشام)، سي علي بودلمي (صاحب طريقة)، محمد بابا أحمد، الحاج مصطفى العشعاشي، الحاج الحسين الذيب.

4- الواقفون في الصف الثالث : المختار الحفاف، أحمد مكيدش، محمد بن شعلي، سي عبد السلام حاج حاسين، محمد بن يلس، الحاج أحمد فاندي، علال قاروزان، حسين مصلي، سي توهامي ابن عصمان، محمد قاروزان، عبد الرحمان بن قنانش، الحسين بن يلس، محمد بن شعلي.

5- الواقفون في صف الوراء : الحاج عمر العشعاشي، الحاج عبد الغني بوعياد، محمد الزروق، الشهيد سي جلول بن عصمان، عبد القادر بن يلس، محمد بن مامشة، سي محمد بن شوك، الغوتي بن حمزة، عبد الله بن يلس، الشهيد الحسين بن يلس، حمادي بن طالب.

أخذت هذه الصورة بسطح زاوية "ابن يلس سنة 1948.

المصادر وَالمراجع

المصادر والمراجع العربية :

1- القرآن الكريم

2- إخوان الصفا : عمر الدسوقي- القاهرة- الفجالة- دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط3، 1973.

3- لسان العرب : ابن منظور- المجلد 14- رقم 9026- دار الإنتاج المستقبل للنشر الإلكتروني- بيروت - دار الصادر للطباعة والنشر إزداد- 1 - 1995.

4- الإسلاميات : عباس محمود العقاد - المجلد 5- بيروت- دار الكتاب البناني- ط1- 1974.

5- إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي- دمشق- عالم الكتب- ج1.

6- إيقاظ الهمم في شرح الحكم - ابن عطاء إسكندري مع الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن البنا السرقسيطي- دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع - ج 1.

7- البيان والتبيين : الجاحظ - الجزء الأول

8- تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة : حسن عبد الوهاب- ج1- أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- النويري- ط1- القاهرة- 1976م، ط2- بيروت 1993.

9- ترجمة القصد البادسي : S.A.M.C.S. Coline إنتاج 1926.

10- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام : د. محمد عي أبو ريان – بيروت– دار النهضة العربية – 1976م.

11- تفسير الكشاف : الزمخشري – القاهرة – دار المصحف – ج6.

12- تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي – دار مكتبة الحياة – د.ت – د.ط. – ج10.

13- دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي – بيروت – دار الفكر – المجلد 5.

14- دائرة المعارف الإسلامية : محمد ثابت الفندي، أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس – المجلد 10.

15- دار المعارف الإسلامية : محمد فريد وجدي – بيروت – دار الفكر – د.ت – د.ط – ج4.

16- رسالة الشرك و مظاهره : لمبارك بن محمد الميلي : مكتبة النهضة الجزائرية – الجزائر.

17- غيث المواهب العالية في شرح الحكم العطائية : ابن عبد الله العباد النفزي الرندي – تحقيق د. عبد الحليم محمود و د. محمود بن شريف – القاهرة – مطبعة السعادة – ط1 – 1380هـ/1970م.

18- القاموس المحيط: الفيروزبادي– لبنان– بيروت– دار العلم للجميع– د.ت– د.ط.

19- قصة الديانات : سليمان مظهر – الوطن العربي – د.ت –د.ط.

20- اللمحة البدرية في التعريف بالطريقة الهبرية : الهبري سيدي أحمد – منشورات المجتمع – ط1- 2001.

21- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية : محمد عبد الرحمان مرحبا – بيروت – منشورات عويدات – ط1 – 1970.

22- المبتدىء في التعرف على التصوف السني : مصطفى السنوسي – البويرة – مؤسسة الاتحاد للنشر والإشهار.

23- كتاب المريد في التسلح بعلوم التصوف وَ الفقه و التوحيد : الشيخ السنوسي مصطفى بن الشيخ الحاج بلقاسم بن عبد الله بن سيدي حراث بن عيسى – الإنجاز الفني : مؤسسة الاتحاد للنشر و الإشهار.

24- النهاية في غريب الحديث والأثر : الإمام محمد مجد الدين ابن السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير – ج2 – دار إحياء الكتب العربية – ط1- 1313هـ/1973م.

25- نهاية ابن الأثير – ج2

26- وصية الذاكرين في نبذ المنتقدين : الحاج بلقاسم بلحراث – ديوان المطبوعات الجامعية – وهران.

الرسائل الجامعية :

1- زاوية سيدي بن عمر، إشعاعاتها الاعتقادية والثقافية وَالنفسية (مقارنة سوسيولوجية – أنثربولوجية) لِبن لباد الغالي – رسالة ماجستير تحت إشراف الأستاذ الدكتور شايف عكاشة وَبمساعدة الدكتور سعيدي محمد – السنة 2000 /2001.

2- الطرق الصوفية بالجزائر أصولها وَ تطورها حتى سنة 1939 – عبد الحكيم مرتاض – رسالة ماجستير – معهد الثقافة الشعبية – تلمسان – 1998 /1999.

المراجع الأجنبية:

1- Algérie : Terre de foi et de culture – Camal BOUCHAMA – Ed. Houma Bouzereaa – Alger.

2- Anthropologie : André Akoun – Paris 5 – Sorbonne.

3- Le bidonville de Benmsik : André Adam – Anales de l'Institut d'études orientales – Ed. la Typo-Litho et Jule Carbonel – Alger – 1945.

4- Contribution à l'Etude des confréries Religieuses Musulmanes Général P.J André Préface de M.J Soustelle . Editions , la maison des livres Alger 1956 .

5- Le culte des saints dans l'islam maghrébin : E. Dermenghem – Gallimard – 1954.

6- Essai sur l'histoire de l'islam : Dozy Leyde – 1979.

7- Manaquib d'Ibû Ishaq-Al Jabanyâni : Hady Roger Idriss – Press Universitaire de France – Paris – 1959.

8- La mosquée : Lucien Golvin – Institut d'études supérieures islamiques d'Alger – Palais d'hivers – 1960.

9- Oran m Cité Berbère : J. Caznave – Société de géographie et d'archéologie d'Oran – 29 mai 1922 – Imprimerie L. Fouquet – Oran.

10- Taza et le Riata : L. Voinot - Société de géographie et d'archéologie d'Oran – Oran – Mars 1910 – Tomme XL

11- Internet : Sheikh Sidi Ahmed Tijini File // AA SHEIKH – 1.HTM .

فهرس الموضوعات

إهـــداء :..... أ
شكـــــر : ..... ب
المقدمـــة 1

الفصل الأول : مفهوم الـزاوية 9
1- تعريف الزاوية..... 10
2- المعنى الاصطلاحي للزاوية 12
3- الزاوية والرباط 14
أصل نشأة الزاوية..... 20
أ- الفرق الإسلامية و أثرها في نشأة الزاوية 22
ب- الطرق الإسلامية 33
ج- تصنيف الطرق الإسلامية 35

الفصل الثاني : وظيفة الزاوية الدينية والأخلاقية وَ الاجتماعية 37
أولا : الوظيفة الدينية : 38
1- أصل كلمة التصوف 40
2- مكانة الصوفية في الجماعة الإسلامية : 41
3- أسس التصوف 47
4- خصائص التصوف 48
5- مصادر التصوف 50
6- أصل كلمة صوفي 53
7- الولاية و صلتها بالتصوف والزاوية 57

ثانيا : الوظيفة الأخلاقية : 67
1- الانتساب الروحي 68
2- توبة المريد 70
3- دور التسبيح 70
4- التربية الأخلاقية 72
ثالثا : الوظيفة الاجتماعية : 76
1- النظام الداخلي للزاوية 77
2- أملاك الزاوية..... 78
3- الزيارة 79
4- الضيافة والتعاون 81

الفصل الثالث : الوظيفة التربوية و النفسية وَ اللغوية 85
الوظيفة التربوية : 86
الوظيفة النفسية : 103
الوظيفة اللغوية : 112

خـــــاتمة : 124
الملحق : 127
1- ملحق رقم 1 : الطرق الدينية والزوايا 128
2- ملحق رقم 2 : الزوايا ونشاطاتها عبر الصور..... 145

المصادر والمراجع :..... 154
1- المصادر والمراجع العربية..... 155
2- الرسائل الجامعية..... 158
3- المراجع الأجنبية..... 159
فهرس الموضوعات..... 160